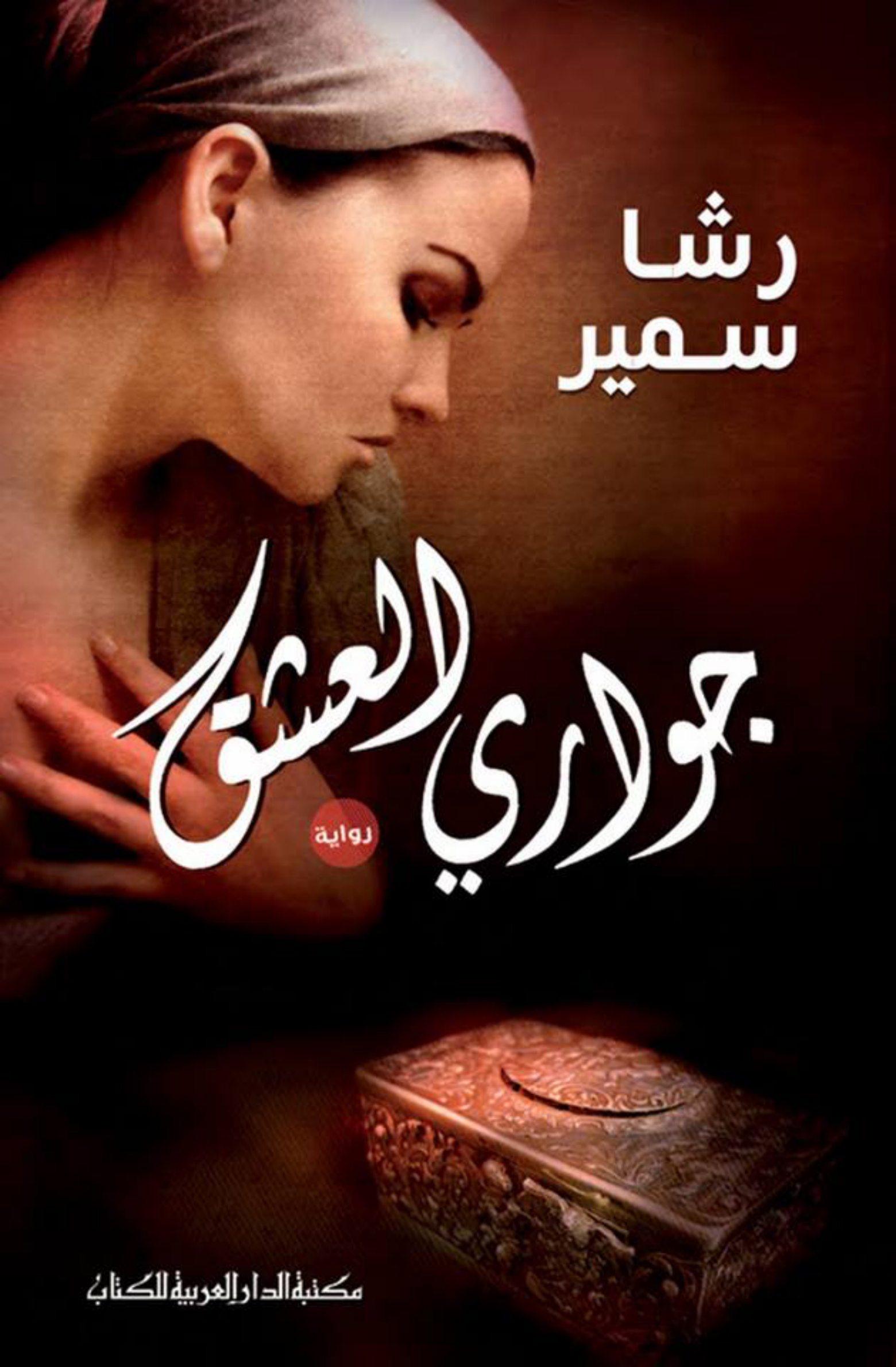
رشا سمير
جواري العشق
رواية
مكتبة الدار العربية للكتاب

www.facebook.com/ISakaLance

رشا سمير

جواري العشق

رواية

مكتبة الدار العربية للكتاب

مادة محمية بموجب حقوق النشر

إهداء

إلى أمي..

لأنكِ أنتِ الحضن والسكن، ولأن عينيكِ هما بوصلتي ومرساي..
ولأنكِ دفعتيني بكل الحُب لكتابة هذه الرواية.. أشكرك.

إلى أبي..

لأنكَ علمتني أن الحُرية مبدأ وموقف..
ولأنك كنت دومًا قدوتي وملجئي.. أحترمك.

إلى فرح..

لأنكِ صديقتي التي احتوتني، وابنتي التي ألهمتني..
ولأنكِ ذاك القلب المخملي الذي يعيش بين ضلوعي.. أُحبكِ.

إلى نور..

لأنكِ امتداد قلمي ودُرة حياتي..
ولأنكِ صاحبة تلك الابتسامة التي ترويني، والنظرة التي تُذيبني..
أعشقكِ.

د. رشا سمير

مادة محمية بموجب حقوق النشر

إهداء

إلى أمي..

لأنكِ أنتِ الحضن والسكن، ولأن عينيكِ هما بوصلتي ومرساي..
ولأنكِ دفعتيني بكل الحُب لكتابة هذه الرواية.. أشكرك.

إلى أبي..

لأنكَ علمتني أن الحُرية مبدأ وموقف..
ولأنك كنت دومًا قدوتي وملجئي.. أحترمك.

إلى فرح..

لأنكِ صديقتي التي احتوتني، وابنتي التي ألهمتني..
ولأنكِ ذاك القلب المخملي الذي يعيش بين ضلوعي.. أُحبكِ.

إلى نور..

لأنكِ امتداد قلمي ودُرة حياتي..
ولأنكِ صاحبة تلك الابتسامة التي ترويني، والنظرة التي تُذيبني..
أعشقكِ.

د. رشا سمير

مادة محمية بموجب حقوق النشر

سمعتُ صوتًا هاتفًا في السَّحَر نـادى من الغيـب غُفاة البشر

هبوا املأوا كأس المنى قبل أن تملأ كأسَ العمر كفُّ القَدر

لا تشغلِ البالَ بماضي الزمان ولا بـآتي العيش قبـل الأوان

واغنـم مـن الحـاضر لذاتـه فليـس في طبع الليـالي الأمان

غَـدٌ بِظَهْـرِ الغيـب واليومُ لي وكمْ يَخيبُ الظَّنُّ في المُقْبِل

عمر الخيام

مادة محمية بموجب حقوق النشر

بداية ونهاية..

امتدت يدها إلى الستارة الثقيلة، وأزاحتها بصعوبة من فوق الشباك، فانطلق النور يعدو إلى داخل الغرفة وكأنه كان حبيسًا طوال تلك السنوات وراء خيوط الستارة، متواريًا يحتمي بها من قسوة الظلام ووحشته..

اتكأت على عصاها ويداها ترتعشان، واستندت على حافة النافذة مُتحاملة على أوجاعها، حتى وصلت إلى جانب الغرفة، فألقت بنفسها على المقعد وهي تُطلق زفيرًا، جعلها تبدو كما لو كانت راقدة في القاع طويلًا، تبحث عن الهواء لتنطلق.

نظرت إلى الممر الطويل الذي تطل عليه شُرفتها، واتجهت بنظرها يمينًا ويسارًا لتبحث عن الزهور التي كانت تُزين تلك الممرات طوال هذه السنوات كما اعتادت رؤيتها.. فوقعت عيناها على الزهور الحمراء، والصفراء، وهي تتمايل مع حركة الهواء، فهدأت نفسها وشعرت بحنينٍ إلى الماضي الذي طالما طاردها في صحوها ونومها..

بيدٍ ترتعش، أدارت مفتاح المذياع على محطة الأغاني، فقد كانت على الرغم من ضعف الذاكرة الذي بدأ يتسرب إليها، تُدرك أن في مثل هذا

مادة محمية بموجب حقوق النشر

التوقيت كل يوم تبث الإذاعة أغنيات مطربها المُفضل.. مفتاح صول الغناء.. عاشق كليوباترة.. محمد عبد الوهاب.

كان المذياع يبث أغنية النهر الخالد.. سكنتها النغمات.. واحتوتها الكلمات.. وأخذتها الأغنية من ذكرى إلى ذكريات.. ومن حُلم إلى أحلام..

تذكرت شبابها، وتذكرت معاناتها، وتذكرت أحلامها.. وتذكرت رجالًا في حياتها. تذكرت الحُب والفراق والمعاناة..

وعادت الكلمات تُطاردها:

«شابت على أرضه الليالي
وضيعت عمره الجبالُ
ولم يـزل ينشدُ الـديـارَ
ويـسـأل الليل والنهارَ
والناس في حبه سكارى
هاموا على شطه الرحيبِ
آآآآآآه على سرك الرهيبِ
وموجك التائه الغريـبِ
يا نيل يا ساحر الغيـومِ»

تذكَّرت كيف كانت تختلس اللحظات لتقابله على ضفاف النيل، وكيف كانت تحكي له عن أحلامها ورؤيتها للحُرية التي غابت عن

مادة محمية بموجب حقوق النشر

دنياها طويلًا.. ما أجمل الذكرى حين تُعاودنا من حين إلى حين.. فتسكُننا القصص والحكايا..

امتدت يدها إلى الصندوق الخشبي المُطعم بالنحاس الكفت، والمحفور عليه بالخط الكوفي أبيات شعر بطريقة تبدو متداخلة في صورة فنية، وكأنها رسوم وليست حروفًا.. عَلَته الأتربة فرفعته من على الأرض، وأزاحت التراب من فوقه، وكأنها تمسحه من فوق عمرها الطويل..

نظرت إلى الصندوق طويلًا، كأنها تنتظر منه أن يُحاكيها، وينتظر منها أن تحتضنه.. راحت تقرأ بعينيها الأبيات في خشوع، وكأنها في محراب العشق تتعبد للآلهة.. آلهة الذكرى، وآلهة الحياة.. همست برموشها:

ما كنـــتَ إلَّا حُـــلـما   رأته عيني في الوَســَــــن
يا سمحَ الفعلِ ويـــا   أحسـنَ من كلِّ حســـــن

إنها كلماتها.. أشعارها.. أبياتها.. تُرى متى كتبتها؟ تُرى لماذا عاشت الكلمات وماتت الأحلام؟!

أخرجت قلادة من العنبر، رفعتها بكل رفق، لثمتها بعينيها ثم نحتها جانبًا.. أخرجت مجموعة أوراق صفراء قديمة، فضَّتها بحرص، ثم أخرجت مجموعة أخرى من المكاتيب.. التقطت مجموعة منها بين يديها.. وأخذت تتصفحها واحدة تلو الأخرى..

كل صورة تحمل معنًى، وتاريخًا، وذكرى، ومذاقًا خاصًّا جدًّا..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ثم أخرجت مظروفًا آخر، رثَّ المظهر، تكاد أوراقه الصفراء تتفتت من شدة الهشاشة، وفتحت ورقة مطوية قديمة تبدو وكأنها مكتوب، أو مخطوط، أو ربما رسالة.. رسالة مكتوبة بحروف عربية قديمة، لُغة تبدو وكأنها لا تعرفها، خط عربي قديم.. طمس الزمان بعض حروفها، لكنها تفهمها جيدًا، تعيها بقلبها قبل عينيها.. مرَّت بأناملها فوق السطور وكأنها أعمى يقرأ رسالة بطريقة «برايل»..

تنهدت.. فهي تحفظ عن ظهر قلب كل كلمة مكتوبة فيها.. إنها رسالة غرام.. رسالة من عاشقة إلى معشوقها.. تكتب إليه لتبوح له بمكنون نفسها.. رسالة كُتبت بحروف من الشعر وأخرى من النثر.. لكنها جميعًا كُتبت بحروف من الشوق..

إنها تعرفها جيدًا، وتعرفه جيدًا، وتعرف الأحداث وكأنها عاشتها.. ولكن كيف؟

وقعت عيناها على صورة أخرى لفتاة رائعة الجمال، يكاد حسنها يطغى على سحر القمر الذي تقف في ضوئه.. إن عينيها تفيضان بالتحدي، وملامحها تصرخ بالحب، ووقفتها تضجُّ بالكبرياء.. لكنها تقف وحيدة.. تُرى ماذا تنتظر؟ أو ماذا ينتظرها؟

رفعت الصورة إلى شفتيها ولثمتها بقبلةٍ حانيةٍ، فإذا بدمعة من عينيها تسقط على الصورة، فتضطرب وتمسحها سريعًا بطرف ثوبها حتى لا تترك للدمعة فرصة إتلاف الذكرى الجميلة.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وما بين الصور والرسائل والمخطوطات.. تأخذها الأحلام في سفينتها الذهبية إلى مملكة النوم، فتغفو عيناها، ويسقط رأسها على كتفها.. تقع الأشياء من بين يديها على الأرض، وتدخل هي في عالم الذكريات التي حبسها الصندوق القديم..

في هذه اللحظة تدخل عليها حفيدتها التي تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وهي ترتدي «بنطلون جينز» ضيقًا، و«بادي» سماوي اللون، وتضع سماعة مُشغل الموسيقى في أذنيها.. تقترب الفتاة منها وتهم بأن تجمع الصور من على الأرض لتعيدها مرة أخرى إلى الصندوق، فهي تعلم كم تنزعج جدتها إذا ما أصاب هذه الصور أو الرسائل مكروه..

تنتفض الجدة من نومها على وقع أقدام الحفيدة وحركتها في الغرفة، فتقول بصوتٍ غاضبٍ:

- سيبوا الصور.. سيبوها.. سيبوها تكتب..لازم تتمسك به، ده حُب حياتها.. لأ.. لأ.. لازم نمنعها.. لازم تفضل هنا.. لازم تفضل جنبي..

تأكدت الفتاة أنها تحلم كعادتها، فتقدَّمت منها وربَّتت كتفها وقالت لها في هدوء يبعث على الطمأنينة:

- إهدي يا آنَّا.. ماتخافيش.. كل حاجة حتبقى تمام.. إنتي بتحلمي..

فركت الجدة عينيها لتزيح عنهما آثار النوم، وأشارت إلى الفتاة بإصبعها وكأنها تنهاها عن فعل خاطئ تكاد تقوم به:

- خدي بالك من الصور والرسايل دي.. دي كل حياتي.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ردَّت الفتاة بابتسامة يشوبها الهدوء:

- ما تخافيش يا آنَّا.. أنا حارجعهم مكانهم زي ما علمتيني، المُهم تنامي وترتاحي.. تعالي أدخلك السرير..

قامت الجدة وهي تتكئ على كتف حفيدتها، والحفيدة تؤازرها في حنان، حتى اقتربت من السرير فصعدت إليه وأنفاسها تتهدَّج، دخلت تحت الغطاء، وفتحت يديها لترتمي الحفيدة بين ذراعيها.. اختبأت بين أحضانها وسألتها:

- جدتي الجميلة.. إيه سر اهتمامك الغريب بالصور والرسايل دي؟ كنت دايمًا باحس إنها دنيتك اللي عمري ما عشتها.. وحياتك اللي عمرك ما كلمتيني عنها.. إمتى حييجي الوقت وتحكي لي خباياها وتكشفي لي الأسرار اللي كتير بالمحها في عينيكي بس عمرك ما بوحتي بيها.. إنتي لمَّحتي لي كتير إنك كان ليكي تاريخ طويل مع الحُب.. ومعركة شرسة مع الحُرية.. بس عمرك ما قلتي لي إذا كانت رحلتك دي نجحت والَّا فشلت؟ ويا ترى مين فيكم كان حظها أحسن.. إنتي والَّا أمي.. زي ما كل رحلة وليها ركاب، كل معركة وليها ضحايا.. يا ترى مين فيكم اللي دفعت التمن؟ ومين اللي حصدت الأمل؟ مين؟ إمتى حتيجي اللحظة اللي حتحكي لي فيها؟ إمتى؟

اعتدلت الجدة في رقدتها، واحتضنت وجه حفيدتها بين يديها بكل حبٍّ وقبَّلتها قبلة طويلة على جبينها، ثم قالت والسعادة تحتل كل ملامحها:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- أعتقد انه حان الوقت أحكي لك، كنت منتظرة إنك تسأليني لما يبقى عندك فضول تسمعي واهو جه الوقت.

صمتت الجدة قليلًا، وأشارت للحفيدة كي تأتي بالصندوق مرة أخرى وتفتحه.. قررت أن تحكي، وأن تعتصر ذاكرتها حتى لا تفوتها التفاصيل الصغيرة..

امتدت يدها إلى الصندوق لتفتحه، التقطت من بين الأوراق ورقة مطوية، وأعطتها لحفيدتها وقالت لها:

- الكلام اللي في الرسالة دي أنا اللي كتبته، كتبته من فترة مش بعيدة.. خواطر جت لي أو تقدري تقولي خلاصة تجربة عشتها.. إفتحي الورقة وإقريها بصوت عالي..

فتحت الفتاة الرسالة المكتوبة بحبرٍ يعتصر الذكرى، وحروفٍ تحمل لون الحياة.. وبدأت تقرأ:

«لم يكن حظها أفضل من حظي كثيرًا.. ولم يكن حظي الأفضل بينهن..

أما هي فقد كانت صاحبة الحظ الأوفر، كلنا بحثنا عن نفس الشيء، وكلنا حاربنا من أجل نفس الهدف، كلنا سرنا خلف نفس الحُلم فوصلنا إلى خيطٍ من السراب..

قهرنا الظروف مرة وقهرتنا الظروف مرات.. وكانت نهاياتنا مختلفة..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كان وقوعنا في الحب سببًا أبديًّا لبقائنا خلف أسوار القهر طويلًا، وكان وقوعنا في الحب سببًا دائمًا لبحثنا عن شق في الحيطان يتسرَّب منه إلينا شعاع أمل أو طريق للحرية..

كنا نساءً نبحث عن دورنا، أو نساءً بحثت عنا أدوارنا.. ووصلنا ليقين أن البحث عن الأشياء يجعل منَّا رحالة في دنيا الغيب، وتبقى الحقيقة الأكيدة وهي أن أدوارنا وأقدارنا تظل تبحث عنَّا حتى تجدنا هي قبل أن نجدها نحن..

لكلٍّ منا قصة، قصة بقيت منها عِبْرَة..أو قصة سقطت تحت أقدامها عَبْرَة..قصة رُويت لنا وقصة رويناها.. قصة حكت عنَّا وقصة حكيناها.. لم يتبقَّ منها سوى تلك الأوراق والصور.. لم يتبقَّ منَّا سوى أطلالٍ لطريق مشيناه..

وعلى الرغم من كل المكاسب وكل الخسائر.. بقيت هي الفائز الوحيد..»

ابتلعت الفتاة ريقها في هدوء، ونظرت إلى جدتها نظرة تملؤها الحيرة.. فهي لم تفهم الكثير من سطور الرسالة.. مجرد كلمات يلفها الغموض، وتسكنها التساؤلات..

لا محالة.. فقد آن أوان أن تسمع.. علَّ الإجابات تأتي في الحكاية..

توقَّفت الفتاة حائرة أمام جملة جدتها الأخيرة، تُرى من هي الفائز الوحيد التي قصدتها جدتها.. وبسرعة قرَّرت أن تسأل قبل أن تفقد جدتها تركيزها كالعادة:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- يا ترى هي مين؟ مين هي الفائز الوحيد؟

تنهَّدت الجدة وأزاحت بعض الشعيرات البيضاء من فوق جبينها، ونظرت إلى الخارج.. ومن خلال زجاج النافذة هامت طويلًا وكأنها تسترجع أعوامًا بعيدة..

صمتت قليلًا ولم ترد..

وعادت إلى الأمس.. لكنه ليس الأمس القريب.. إنه الأمس البعيد.. البعيد جدًّا..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

(1382-1517م)

وطن وغربة

كانت السفينة تتهادى فوق سطح المياه، تعاند الريح العاتية، وتعانق الأمواج بقسوة، فالبحر اليوم هائج، يكاد يُلقي ما بداخله على الشاطئ علَّهُ يكف عن تقلُّبه.

مضى يومان عليهم في البحر، والجميع على السفينة من بحارة وعاملين وحاشية ينتظرون الوصول إلى هدفهم بفارغ الصبر.

بالرغم من البرودة الشديدة التي كان يحاول الجميع الاحتماء منها بالملابس الثقيلة أو الهروب عنها بالجلوس بعيدًا عن تيارات الهواء، إلا أن رجلًا واحدًا كان يقف في مُقدمة السفينة، يحمل في جانبه سيفًا، ويرتدي ملابس منمقة مزركشة، تنم ملامحه عن العظمة والكبرياء.

كان ينظر صوب الشاطئ الذي لا يراه، لكنه يتمنى الوصول إليه.. سرح بخياله بعيدًا متمنيًا لو كلَّل الله مهمته بالنجاح، يسأل نفسه في كل دقيقة: «كم من الوقت بقي للوصول؟ وكيف سيبدأ رحلة بحثه؟ وهل سيعثر على ما يجول بخاطره، أو بالأحرى هل سيجد ضالته؟ أم سيعود خالي الوفاض؟!»

مادة محمية بموجب حقوق النشر

اقترب شخص آخر من الرجل الواقف في المقدمة وسأله:

- مولاي السلطان المنصور فخر الدين، ما الذي يجعلك تقف هكذا في وجه الهواء؟ إن البرد قارسٌ جدًّا!

رد السلطان وهو ما زال ينظر أمامه في خط مستقيم:

- إنني قلق للغاية لدرجة أنني كما ترى قررت أن أقوم بهذه المهمة بنفسي، قل لي كم تبقَّى لنا لنصل إلى بلاد الكرج أو جورجيا كما تسمونها؟

- أعتقد أن أمامنا أيامًا قليلة لنصل إليها، أظن أنني سمعت ربَّان السفينة يقول إنها تقع ما بين بحر قزوين والبحر الأسود، ولكن هل تعتقد أنك ستجد فيها العناصر المناسبة لإقامة هذا الصرح الذي تحلم به؟

لم يرد السلطان ولكن في داخله تمنَّى لو أن وجهة نظره كانت سليمة وتحقق له ما تمنى، لقد حان الوقت للتغيير، ولا بد أن يسعى بكل جهده من أجل أن يكون التغيير للأفضل..

لم يكن أمام السلطان المنصور فخر الدين جقمق الكثير من الوقت كي يرتاح من آثار هذه الرحلة الشاقة، وفي نفس اليوم الذي رست فيه السفينة على شواطئ مدينة الكرج، كلف السلطان مساعده للقيام على الفور بالاتفاق مع أكبر تاجر غلمان هناك لكي يعرض عليه مجموعة من الغلمان لا تتعدى أعمارهم ثمانية عشر عامًا، وأن يكونوا أيضًا أقوياء ذوي ذهن متَّقد ومظهر لائق..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

بالفعل نجح التاجر في استقدام مجموعة لا بأس بها من الغلمان حسب طلب السلطان أو أقرب ما يكون إلى طلبه، بعدما تأكد تمامًا أنهم ذوو صحة جيدة ويخلون من الأمراض..

أخذ السلطان يتفحص الغلمان بعين فاحصة وكثير من التدقيق..

فهذا أبيض اللون، وذاك طويل القامة، وهذا بنيانه ينم عن رجل قوي في المستقبل.

كانت الخطوة التالية هي الاتفاق مع الأهل وإجراء الترتيبات اللازمة لنقل الغلمان إلى السفينة والتحدث معهم في محاولة لإقناعهم بالتخلي عن حياتهم الماضية، وتقبل الحياة الجديدة بكل ما فيها من مغامرة واختلاف في أسلوب الحياة، كما كان عليه أيضًا امتصاص خوفهم وصدمة بُعدهم عن الأهل..

أما عن خطوة الأهل، فقد كانت هي الخطوة الأسهل؛ لأن هذه الصفقة وما تحمله من قيمة مادية ومعنوية هي كل ما كان هؤلاء يتمنون لأبنائهم، ولذلك وجب عليهم قبول العرض والدعوة من أجل الحصول على الجاه والمال معًا.

أبحرت السفينة في طريقها إلى القاهرة وعلى متنها ما يقرب من مائة أو مائة وخمسين غلامًا.. قلوبهم الصغيرة تدق من فرط الخوف، وعيونهم تترقرق بالدمع لفراق ذويهم..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تُرى ما هو المصير الذي ينتظرهم في وطن بعيد، وبين أشباح أشخاص لا يعرفونهم؟!

تُرى هل سيأتي الغد بالنصرة.. أم سيأخذهم إلى هزيمة وسقوط؟!

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

منذ رست السفينة على شاطئ البحر أدرك هؤلاء الغلمان أنه لا مفر من الاستسلام والخضوع للأمر الواقع، فقد حان الوقت لكي يحاولوا التأقلم والاندماج في الحياة الجديدة التي فُرضت عليهم..

كانت الأيام الأولى لهم بمثابة الحلم الذي يمر بالرأس بين اليقظة والنوم..

تم توزيعهم في عنابر، في كل عنبر خمسة غلمان حسب الترتيب الأبجدي..

تقع العنابر في قلعة منعزلة على أطراف المدينة تسمى «أبراج قلعة الجبل».. إنه مكان شبيه بالحصون، أو أقرب إلى السجون المنعزلة..

مكان مُحاط بسرِّية خاصة فرضتها عليه الظروف المحيطة به، فدادين من الحشائش الخضراء الممتدة على مرمى البصر لا تجرحها عين إنسان..

إسطبلات للخيول العربية، ومكان شاسع لممارسة ركوب الخيل.. شمس تشرق على استحياء و تغرب على سكون لا نهائي..

كان السلطان المنصور فخر الدين يُشرف بنفسه على هذه العملية التي اعتبرها من أصعب إنجازاته طوال فترة حكمه.

إنه ينهض معهم في الصباح الباكر ليبدأ بمراقبتهم وهم يتناولون طعام الإفطار، ثم يتوجهون لركوب الخيل والسباحة، ثم يتناولون وجبة الغداء، وبعدها يدخلون إلى القاعة الكبيرة ليبدأوا تدريبات المبارزة بالسيوف..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كل ذلك وهو يتابع ويراقب ويلاحظ، في محاولة للوصول إلى الأفضل..

كان حريصًا على اختيار الأفضل والعمل على إعطائهم جميعًا فرصة متساوية لإثبات كفاءتهم.

إلى أن كان عصر أحد الأيام، عندما لاحظ شابًّا صغيرًا يقف في ركن وحيدًا، ينظر إلى كل المتدربين بالسيف، يراقبهم بتمعن ويتفرسهم بكثب في كل حركة كبيرة وصغيرة يقومون بها.. إلى أن جاء عليه الدور ليتبارز مع معلمه.. فتقدم بثبات يُحسد عليه، ثم أمسك السيف بألفة شديدة وكأنه اعتاد على القتال منذ نعومة أظافره..

نزل إلى الساحة.. فانطلق السيف بين يديه يضرب يمينًا، ويحصد شمالًا، ويتفادى ضربات خصمه مثل الفراشة..

استمر القتال وقتًا غير قصير.. ووسط دهشة السلطان تفوَّق الغُلام على مُعلِّمه، بل وأدهشه أكثر أن الشاب خرج من الحلبة بهدوءٍ شديدٍ، ورجع إلى مكانه يرقب في حماسٍ بقية المتبارزين، وكأن فوزه شيء عادي جدًّا وليس حدثًا يستحق التوقف عنده..

اقترب السلطان من الشاب وسأله:

- ما اسمك أيها الشاب الشجاع؟

تنبَّه الغلام على صوت السلطان وكأنه أيقظه من نومه، وقال:

- اسمي شهاب الدين إينال يا مولاي.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- وكم عمرك؟

رد الغلام على الفور بلهجة مهذبة:

- عمري خمسة عشر عامًا يا مولاي.

نظر إليه السلطان نظرة فاحصة، دقَّق فيها في كل تفاصيل وجهه وجسده وكأنه يهم بأن يشتري شيئًا ثمينًا.. ثم استطرد قائلًا:

- هل تعلم لماذا أتيت إلى هنا؟

رد شهاب الدين على الفور دون تفكير:

- لا أعرف يا سيدي على وجه التحديد، ولكنَّ أبويَّ أخبراني أنها فرصة ربما تكون الأفضل بالنسبة لي.

عاد السلطان يسأله:

- وهل تعتقد أنت ذلك؟

أجاب شهاب الدين:

- لا أعرف، ولكنني على يقين يا سيدي من أن أبويَّ على حق، ولذلك وجب عليَّ طاعتهما؛ لأنهما لا يريدان لي سوى الأفضل..

ارتسمت على وجه السلطان علامات ارتياح لإجابات الغلام التي تتسم بالذكاء الواضح، فربَّت كتفه وانصرف الغلام على الفور.

جاء من ورائه مساعده المفضل الأشرف بركة خان، والذي رافقه في الرحلة كما تعوَّد أن يرافقه في كل خطواته.. ثم قال بصوت خفيض أشبه بالهمس:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- يبدو أنك معجب بهذا الولد.

أومأ السلطان برأسه علامة الموافقة وقال:

- أنت تعلم تمامًا أننا نضع كل آمالنا ومستقبل أولادنا بين أيدي هؤلاء الشباب، إنهم المفر الوحيد لنا من المماليك التتار والتركمان بعدما استفحلوا في البلاد واستأثروا بالحُكم، لقد جئنا بهم بعد اختيار دقيق، وسوف يتم تدريبهم وتوزيعهم وفقًا لخطة مُحكمة على الأماكن التي نراها مناسبة لقدراتهم، ومن ثَمَّ نكوِّن بهم جيشًا ضخمًا لحمايتنا وحماية أولادنا من بعدنا، وحماية البلاد أيضًا.

ابتسم الأشرف بركة خان بعد أن فهم أخيرًا بُعد نظر السلطان، وبالفعل أدرك الآن فحسب أنها فكرة ممتازة، وعلى الرغم من أن الصورة أصبحت بالنسبة له أكثر وضوحًا، إلا أنه عاد يسأل مجددًا:

- ولماذا يا مولاي لا تسمح لهم بالنزول إلى الشارع والاختلاط بالناس، أنا أعتقد أن اختلاطهم بالعامة سوف يزيد من قدرتهم على التكيف وفهم الصورة بشكل أفضل.

هزَّ السلطان رأسه علامة الإيجاب وقال:

- إن هذه الخطوة سوف تتم أيضًا، ولكن في توقيتها المناسب، إننا نريد أن ندخل إلى عقولهم في البداية، ونعيد تشكيلها وفقًا لاحتياجاتنا، ولا نريدهم أن يختلطوا بالأهالي أو المماليك الآخرين؛ لأن ذلك حتمًا سوف يجعل مهمة تشكيلهم أصعب.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

بدت على وجه الأشرف بركة علامات القبول، حيث اقتنع بكلمات السلطان، واستأذنه في الانـصراف، ثم توقف فجأة واستدار ليوجه للسلطان سؤالًا أخيرًا احتار طويلًا في أن يجد له ردًّا:

- هل تعتقد يا مولاي أن هؤلاء الغلمان سوف يولد لديهم أي شعور بالولاء لنا أو لأوطاننا؟

- سؤال صعب جدًّا، ولكنني أعتقد أن الولاء لا يولد مع الإنسان، لكنه يتولَّد لديه إذا استطاع الوطن أن يحتويه ويُشعره بدفء الحضن.. دعِ الوطن يكن المعلم والملجأ، ودعنا نكن لهم الحضن والحُلم.

عاد الأشرف يسأل:

- لكن.. ماذا عن الحرية؟ كيف سنقنعهم بالتنازل عن حريتهم للأبد؟

ابتسم السلطان وقال بصوت يشوبه الهدوء والثقة:

- الحُرية.. حُلم نجري وراءه طوال الوقت، وما إن نصل إليه حتى نكتشف أنه لم يكن سوى سراب.. دعهم يصلوا مع الوقت إلى الحقيقة الواحدة التي لا جدال عليها، وهي أن حريتهم ليست سوى منحة في أيدينا، نمنحها لهم وقتما نشاء، وننزعها منهم متى نشاء.. هل فهمت ما أعنيه؟

ربما لم يفهم الأشرف بركة في وقتها معنى الرد، ولكن لا شك أن الأيام أثبتت له معنى كلام السلطان ومغزى خطته..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مرَّت شهورعديدة لم يكتفِ فيها الغلمان بتعلُّم فنون القتال والفروسية فحسب، بل كان عليهم أيضًا أن يتعلموا أن النهوض بأنفسهم شيء لا بد منه للوصول إلى غايتهم، بل ويجب أن تتبعه نهضة في المجالات الأخرى، مثل القراءة والفنون والرياضيات وحتى الموسيقى، فكانوا يقضون معظم الأمسيات في حضور مجالس العلم التي يقيمها لهم السلطان وأعوانه.

كان تدريب الغلمان المعتاد يبدأ بتعلُّم القراءة، والكتابة، وآيات القرآن، والفروض الدينية.. ثم مبادئ الفقه الإسلامي، وآداب الشريعة الإسلامية.. وتلقينهم الأخلاق المثالية، ثم تأتي مرحلة تعلُّم السباحة، واللعب بالسيف، وأخيرًا مرحلة ضرب الرمح، وقذف الأطواق، وركوب الخيل، التي تُعتبر من أهم مراحل صناعة الفرسان..

كان المملوك يُراقَب مراقبة شديدة من مؤدبيه ومعلميه، فإذا ارتكب خطأً يمس الآداب الإسلامية نُبِّه إلى ذلك مرة، وبعد ذلك يُعاقب عليه إذا كرر فعلته..

بدا واضحًا للسلطان منذ أن تحدث مع شهاب الدين، أنه سوف يكون له دور مهم في حمايته، لقد كان يكثف له ولثلاثة آخرين من أصدقائه التدريبات والقراءات، وغير ذلك من سبل الارتقاء.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كان السلطان يتابع تدريبات شهاب الدين على الخيل بنفسه؛ كي يضمن إتقانه لركوب الخيل، حيث إن هذا هو الركن الأساسي لأي فارس جيد.. وبالفعل فقد أبلى شهاب الدين بلاءً حسنا في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة..

فمن التدرب على حصان خشبي، إلى ارتداء السلاح والوثب به على ظهر فرس بلا سَرْج ثابت، وفي النهاية التمرن على المبارزة بالسيف من على ظهر فرس مسرجة تجري بسرعة عالية..

بعد تقدمه الملحوظ، أصدر السلطان تعليماته إلى الأشرف بركة خان بخصوص شهاب الدين على وجه التحديد، إذا ما أكمل ستة أشهر من وجوده بالقلعة، حتى يأتي معلمو الفروسية، ومدربو القتال، فيعلمونه فنون الحرب والقتال، في شكل دروس منفردة؛ ليصلوا به إلى مستويات عالية جدًا في المهارة القتالية، والقدرة على تحمُّل المشاق والصعاب..

استطاع شهاب الدين أن يستوعب جيدًا كل ما يحدث حوله، وعلى الرغم من أنه لم يكن مُصرَّحًا لأي شخص في القلعة الادلاء بمعلومات لهم، إلا أنه بذكائه استشف الكثير عن طبيعة المهمة، غير أن الصورة لم تكتمل بعد عنده..

لقد أصبح صديقًا لمجموعة لا بأس بها من الشباب، وأيضًا القادة، واستطاع أن يُكوِّن صداقة قوية مع اثنين فقط من زملائه الذين انتقلوا معه إلى غرفة واحدة، بعد أن أعيد تقسيم العنابر إلى غرف صغيرة.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

لكن الإنسان الوحيد الذي استطاع أن يتخذ عنده مكانة الأخ، كان سيف الدين برسباي، وهو شاب في الرابعة عشر من عمره، يتَّصف بالذكاء الشديد، قوي الحُجة، له قوام متناسق، طيب القلب، حلو اللسان، كما أنه يكتب الشعر، ويعشق القراءة.

كان اللقاء الأول بينهما في مجلس الأدب الذي يُعقد كل خميس في بهو القلعة، وقد لفتت نظر شهاب الدين طريقة إلقاء سيف الدين للأشعار، حين يُطلب منه القراءة بصوتٍ عالٍ، أو حين يسطر الشعر في بعض الأحيان..

ودارت أحاديث كثيرة بينهما، فوجد شهاب الدين نفسه منبهرًا بأسلوبه وطريقته في التفكير.. ومن ثَمَّ نشأت بينهما صداقة وحوارت كانت تمتد لساعات طويلة في الأيام المقمرة، وضحكات كانا يقتسمانها في المواقف الطريفة التي تحدث لهما كثيرًا..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مرَّت شهور طويلة على مجموعة الشباب في التدريب وهم لا زالوا محبوسين خلف جدران قلعة الجبل، غير مسموح لهم بالخروج إلا للأماكن المحدودة التي صُرح لهم بارتيادها.. لكن، وبعد طول انتظار سمح لهم السلطان بمغادرة القلعة والخروج للتنزه يوم الأحد من كل أسبوع في جولة حُرة، بشرط أن يعودوا للقلعة قبل صلاة المغرب، ومَن يتأخر سوف يكون حسابه عسيرًا، على حسب قول معاوني السلطان في القلعة.

أصبح مُصرحًا لهم بالذهاب إلى سوق الخيل، وسوق السلاح، أو سوق الكتب..

ومُنعوا منعًا باتًّا من زيارة سوق العطارين، والقماش، والصاغة.. حيث إن السلاطين يؤمنون بأن تواجدهم لا بد وأن يكون في أماكن تليق بالرجال، وتعلمهم الشدة والبأس بدلًا من الأماكن التي قد تطيح بهيبتهم..

كان أول مكان طُلب منهم الذهاب إليه هو سوق الخيل الموجود تحت قلعة الجبل، حيث قيل لهم إن هذا المكان لا بد وأن يصبح مكانهم المفضل لأنه مكان يخلق رجالًا..

جاء يوم الأحد المحدد للخروج، وكان سيف الدين قد اتفق مع شهاب الدين على أن يخرجا سويًّا، فسبقتهما فرحتاهما وشغفهما برؤية شيء جديد..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ارتديا أفخر الثياب وكأنهما ذاهبان إلى حفل عرس، كما جهز لهما الأشرف بركة مرافقًا يصطحبهما إلى العمار ويتركهما هناك، ثم يعود ليأخذهما بعد وقت معين يحددانه..

كان مجرد خروجهما من باب القلعة دون تحديد مكان معين يتجهان صوبه، سعادة لا توصف؛ فقد كانا يشعران بأنهما معتقلان في أحد السجون، برغم كل الحريات الممنوحة لهما.

نزل الشابان إلى وسط السوق، وكان هذا هو أول مكان خطر على بالهما كي يرتاداه، لقد كانا يريدان رؤية الناس والتمتع بالنظر في الوجوه الجديدة التي يريانها لأول مرة.

شهاب الدين يترجَّل ببُطء في محاولة لمراقبة كل مَنْ حوله، يدخل إلى الدكاكين ويخرج منها مثل الأطفال والابتسامة لا تفارق وجهه.. إنه يراقب تحركات الناس وحواراتهم، حتى إنه كان يجري وسط الأطفال وهم يلعبون، وكأنه واحد منهم..

دخل سيف الدين إلى أحد الدكاكين المخصص لبيع الملابس، وبدأ يمر مرورًا سريعًا على الأصناف المعروضة، يتفحص الخامات، والألوان بعين الفنان الذي يكمن بداخله..

في أثناء وقوفه بالداخل وقعت عيناه على مكان بالرصيف المقابل يجلس فيه مجموعة من الرجال، يتسامرون ويضحكون.. أخذه الفضول فسأل البائع:

- ما هذا؟

مادة محمية بموجب حقوق النشر

علا الاستغراب وجه الشاب الواقف في الدكان وقال:

- علامَ تشير يا سيدي؟

عاد سيف الدين يشير إلى الرجال الجالسين على الرصيف المقابل وقال:

- هذا المكان الجالس فيه هؤلاء الرجال، ما اسمه؟

- لا أعرف إن كنت تحاول أن تسخر مني أم إنك لم ترَ مقهًى في حياتك من قبل؟! في كلتا الحالتين أرجوك أن تغادر الدكان؛ فإنك لن تشتري شيئًا في كل الأحوال.

خطف الرجل السروال من يد سيف الدين، وعلى الفور استدار الشاب وغادر الدكان باحثًا عن شهاب الدين الذي كان واقفًا على الرصيف المقابل، تعلو قسماته علامات التعجب، فاقترب منه وقال هامسًا:

- هذا يُدعى «مقهى»، إذا كان الفضول يعتريك، وهيَّا بنا نجلس مثلهم لنشاركهم السمر.

أخذ شهاب الدين يتجوَّل ببصره في المكان ليتفحَّصه عن قرب، فرأى بعض «الدِّكك» الخشبية التي تُشكِّل نوعًا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى، وعلى الأرض بعض الحُصر المصنوعة من سعف النخيل.. وفي الجهة المقابلة توجد «النَّصْبة» التي يتم فيها إعداد المشروبات، وفوقها «رَفٌّ» عريض توضع عليه النارجيلات بشكل مُنظم.

أخذهما الوقت وهما في سعادة غامرة، يحاولان استغلال كل دقيقة تمر عليهما، حتى جاء موعد عودتهما إلى القلعة مرة أخرى.. فحضر إليهما

مادة محمية بموجب حقوق النشر

الدوادار[1] الذي أمره الأشرف بركة خان بأن يصطحبهما ليعود بهما إلى القلعة..

قبل أن يستديرا ليتركا المكان، لمح شهاب الدين بطرف عينه مجموعة من الفتيات الجميلات يقفن في وسط دائرة من الرجال، أصوات تعلو وصيحات تتشابك، والتجار يزايدون على بعضهم بعضًا في طرح الأسعار..

نظر شهاب الدين إلى الدوادار نظرة لها مغزى، فهمها الرجل على الفور، وأشار له شهاب الدين بالانتظار قليلًا حتى يستطلع الأمر.

توجَّه شهاب الدين إلى حيث يقف التجار، وتزاحم حتى دخل في وسط الدائرة.. فربت كتف شاب وقف ليشاهد جمال الفتيات ويتطلع إلى حسنهن، وسأله:

- ما كل هذه الجلبة؟ علامَ تلتفون؟

أجاب الشاب بشيء من الاندهاش، فما يفعلونه كان جليًا للجميع ولا يحتاج إلى إيضاح:

- إنه تاجر جشع يعرض هؤلاء الجواري بأسعار باهظة، مما يجعل كل التجار الصغار يتشاجرون معه.. ولكن انظر للجواري.. إنهن حقًا حِسان، أعتقد أن معه كل الحق.

ضحك الشاب ضحكة تملؤها الرغبة والشهوة.

---

(1) الدوادار: السكرتير.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

استغرب شهاب الدين من كلام الشاب الذي اعتبره تعليقًا غير لائق، ثم اقترب من الدائرة بشكل أكبر، حتى أصبح من السهل عليه رؤية الجواري الواقفات عن قرب، فرأى مجموعة من الفاتنات، كل واحدة منهن لها شكل مختلف، وجمال من نوع خاص.. فهذه الطويلة، وتلك القصيرة، هذه الشقراء، وتلك السمراء.. هذه نحيفة، وتلك سمينة.. هذه خضـراء العينين، وتلك سوداء العينين.

وعلى الرغم من كل الاختلاف بينهن، وعلى الرغم من اختلاف الجنسيات والأشكال والألوان.. بقي شيء واحد فقط هو ما يجمعهن.. إنها تلك النظرة التي لمحها في عيونهن جميعًا.. النظرة التي لا يمكن إخفاؤها أبدًا.. نظرة الانكسار..

إلا واحدة ...

اقترب شهاب الدين أكثر ليشاهد ما يحدث عن قرب، فالتقت عيناه بعينيها.. إنها أجمل امرأة رآها في حياته..

اقترب منها أحد الرجال الواقفين في محيط الدائرة، وأمسك بيدها، فإذا بها تسحب يدها بقوة، فيحاول أن يكشف ستر جسدها الذي كانت تُغطيه بثوب من الحرير الشفاف.. رمقته بنظرة كلها تحدٍّ.. فما كان من التاجر الذي أتى بها إلَّا أن نهرها بنظرة توعُّدٍ وازدراء..

لم يكتفِ الرجل بما حدث، بل اقترب منها أكثر وسألها بكل تبجح:

- ما اسمكِ؟

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ردَّت الجارية على الفور بكل امتعاض:

- اسمي ليس من شأنك.

تطاير الشرر من عيني التاجر، واستدار بعصبية شديدة وهوي بكفه على وجهها، لتترنَّح الجارية من شدة الصفعة وتقع على الأرض.. فإذا بشهاب الدين يتقدم بسرعة، ويقف أمامها، ويسحب سيفه من جرابه ليشهره في وجه الرجل، ويقول:

- ابتعد عنها وإلَّا قتلتك!

ارتعدت فرائص التاجر، ولكن الرجل الواقف تدخَّل في الحوار بعد أن استفزه موقف شهاب الدين:

- وما لكَ أنت بها، هل تمتلكها؟ هل اشتريتها؟ إنها جارية أيها الشاب، تُباع وتُشترى، ويجب عليها أن ترد بأدب وإلا علمناها إياه.

رد شهاب:

- ولكنها إنسانة، وقبل كل شيء امرأة، لا يجب أن تمتد إليها يد رجل.

ضحك جميع الواقفين.. واستجمع التاجر قواه وقال له:

- ولكنها في النهاية جارية، أي بضاعة.. والتاجر الشاطر يجب أن يختار بضاعته بعناية.. فابتعد من طريقنا وإلا لقنَّاك درسًا لن تنساه.

اقترب الرجل خطوات من شهاب الدين وقد بدا واضحًا للجميع أنه يدفعه للاحتكاك به.. في هذه اللحظة جرى الدوادار إلى حيث يقف

مادة محمية بموجب حقوق النشر

شهاب، وفي لحظة خاطفة أمسك بيده، ونظر إليه كأنه يأمره بأن يُعيد السيف إلى جرابه..

أيقن شهاب الدين الرسالة على الفور وأعاد السيف إلى مكانه، فجذبه الدوادار من يده ليتركا المكان.. في تلك اللحظة التقت عينا شهاب الدين بعيني الجارية، فلمح فيهما رسالة امتنان له، وسرق من فوق شفتيها ابتسامة خفيفة..

استدار لينصرف، لكنَّ شيئًا ما دفعه لينظر إليها مرة أخيرة قبل أن يغادر، وهنا فقط أيقن أن الاختلاف الوحيد الذي استشعره فيها عن بقية الفتيات، كانت النظرة التي تشع من عينيها..

إنها لا تحمل نظرة الانكسار التي رآها في عيون بقية الفتيات.. ما كان واضحًا في ملامحها هو إحساس الكبرياء والاعتزاز بالنفس..

نعم إن نظرتها تحمل ألف معنى للثقة والكبرياء.

انتهى اليوم وعاد كل منهما إلى فراشه، وفي ذاكرتهما اليوم الذي قضياه خارج جدران القلعة.

أما شهاب الدين فلم يسكن النوم جفونه بسهولة؛ لأن صورة الجارية لم تفارق خياله، وخصوصًا وهي تبتسم وكأنها تقول له: «أشكرك».

وصل الدوادار سريعًا إلى قصر السلطان، وطلب مقابلته على الفور ليحكي له تفاصيل ما حدث، فوظيفته تُحتِّم عليه أن يحكي كل كبيرة وصغيرة حدثت لهما أثناء اليوم، حتى ولو بدت التفاصيل غير ضرورية..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

سأله السلطان:

- هل دار بينهما وبين أي أحد حوار؟

قال الدوادار بلهجة حازمة:

- لا يا مولاي، كلها حوارات عادية، ليس فيها ما يُحكى.. لقد كانا مثل الأطفال يلهوان ويلعبان.

أومأ السلطان برأسه وقال بلهجة آمرة:

- لا تدعهما يغيبا عن عينيك في المرة القادمة، ولا تسمح لهما بحوارات طويلة، ولا تنسَ أن تبقى بعيدًا، لكن لا تتورع أن تتدخل إذا لزم الأمر، فهما لا يعرفان أنهما مراقبان.

وفجأة تذكر الدوادار واقعة الجارية، فقرر أن يسردها حتى لا يثير غضب السلطان.. استمع السلطان إلى الرواية بكل إنصاتٍ، ثم عقب بابتسامة صغيرة، وجملة قصيرة، فقال:

- إنه يحمل كل معاني الرجولة بين ضلوعه، حتى لو كانت الأمور مُختلطة عليه، وتطويعه لا زالت مهمتنا الرئيسية، بعدما ننتهي منه سوف يصبح مملوكًا بأخلاق السلاطين وجسارة الفرسان.

انحنى الدوادار احترامًا للسلطان وغادر المكان..

نظر الأشرف بركة خان، الذي كان يستمع طوال الوقت باهتمامٍ إلى الدوادار، ويراقب رد فعل السلطان، ثم قال مخاطبًا إياه:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- أتمنى أن أتسلل إلى عقلك يا مولاي لأعرف ماذا يدور بخلدك، وماذا تدبر لهؤلاء الأولاد؟ لماذا لا تدعهم يتعاملون ويستفسرون ويرسمون انطباعاتهم بأنفسهم؟

سأله السلطان:

- لو كنت مكاني هل كنت ستسمح لهم بالاختلاط والحديث مع الناس؟

صمت الأشرف بركة قليلًا؛ فقد أدرك أن هذا السؤال امتحان له، فقال بعد تفكيرٍ قصيرٍ:

- أعتقد نعم..

ضحك السلطان وقال:

- لقد أخفقت في الامتحان يا صديقي، دعنا أولًا نضع أفكارنا وعقائدنا في رؤوسهم، ثم نزج بهم وسط العامة ونحن متأكدون تمامًا من ولائهم لنا.. لا بد أيضًا أن ننمي الناحية الفكرية والمعمارية لديهم، ففنون القتال وحدها لا تصنع المحاربين والقادة.. القوة البدنية لا بد وأن تواكبها رصانة العقل حتى تتساوى كِفَّتا الميزان.

انصاع الأشرف بركة للتعليمات التي أخذها وانصرف وهو في قرارة نفسه ينوي التنفيذ على الفور.. ولكن ماذا لو استطاع أيٌّ من الشبان الاختلاط بالناس والتبحُّر معهم في حياتهم، كيف سيستطيعون أن يوقفوا هذا التحول الفكري، وهل حقًّا سيؤدي إلى كارثة كما يزعم السلطان؟!

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أصبح نزول الشباب إلى الأسواق والجلوس على المقهى، أو أحيانًا الاستمتاع بحمّام من البخار في أحد الحمامات الشعبية المنتشرة في الأسواق، من الأحداث التي ينتظرونها من الأحد للأحد..

أما شهاب الدين فقد بدأ يدرك بذكائه الفطري أنه لا بد وأن تصبح لديه صداقات من خارج القلعة، لقد أصبح شعوره شبه مؤكد الآن أنهم يحضرونهم لمهمة ما، ولكن هل تتوقف أحلامه وطموحاته حيث يسمح له فقط، أم أن باستطاعته تجاوز الخطوط الحمراء أحيانًا إذا لزم الأمر؟

كان خروج شهاب الدين من القلعة بمثابة رحلة استكشافية للمدينة، أصبح يعرف الأماكن والأشياء وكيفية الاستمتاع بها.

كان يرتاد الحمامات العامة، وعلى وجه الخصوص حمام «الإستادار» ببولاق، وهو بناء ضخم، له بوابتان، واحدة تطل على مدخلِ منحنٍ، تقبع أمامه المُشرفة على الحمام، وهي في العادة سيدة بدينة ذات صحة موفورة، تجيد فنون التدليك، والزينة، وتتمتع بكياسة في معاملة الزبائن، خصوصًا أنها تتعامل مع طبقة زوجات المماليك بكل قوتها وجبروتها، فالغلطة مع هؤلاء النسوة قد تكلفها وظيفتها، أو على أسوأ الظروف حياتها!

كان شهاب الدين يذهب إلى هناك كلما أتيحت له الفرصة، وكان مكانه المفضل هو البهو الفسيح الذي يتوسط المكان، وهو ليس سوى مكان

مادة محمية بموجب حقوق النشر

للحصول على قسط من الراحة قبل وبعد الاستحمام، وفي وسط هذا البهو توجد ردهة فسيحة مبلطة بالفسيفساء، تتوسطها «فسقية»، حولها إيوانات بها مصاطب ترتفع قليلًا عن الأرض، مُغطاة بحصير ويعلو هذه الردهة «شخشيخة» لإضاءة المكان إضاءة خفيفة..

كان يجلس هناك أغلب الوقت ليراقب المترددين على المكان، ويستمع إلى أحاديث الزائرين، بل وتستهويه أيضًا أحاديث العاملين بالحمام، لقد كان يشعر في أغلب الوقت أنه أقرب إلى العامة، يريد أن يعرف عاداتهم وتقاليدهم، لاسيما بعد شعوره بأنه أصبح جزءًا من صورة كان يومًا يراها من بعيد.

في داخل بيت الحرارة، كان شهاب الدين يجلس في إيوان به حوض من الحجر، يستعد لفرك جسده وتفتيح مسامه، مر بجانبه «ضامن» الحمام الذي رأى في عينيه نظرة تنم عن ضيق شديد، هل كان سببها عمله المضني، أم إن ملامحه تنم عن يأس بلا سبب؟ في كلتا الحالتين، لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤاله:

- هل لي أن أسألك ما هو عمل ضامن الحمام؟

رد الشاب ونبرة صوته بها كثير من اليأس:

- إنني أقوم بغسل وكنس المكان يوميًا بالماء والصابون، كما أقوم بغسل الخزانة من الأوساخ العالقة في أسفلها مرة كل شهر، ويلي ذلك تبخير الحمام بالفحم واللبان مرتان يوميًا..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تعجب شهاب الدين من كم الأعمال المُخوَّلة إلى الشاب، وسأله:

- لماذا لا تطلب أحدًا ليساعدك؟

توقف الشاب عن الكنس وركن ظهره على الحائط وكأنه يتذكر، ثم قال والتنهيدة تكاد تمزق ضلوعه من شدتها:

- لقد سألني صاحب الحمَّام إذا كنت أحتاج إلى شخص معي ليساعدني ولكنني أبيت!

رد شهاب الدين على الفور:

- ولماذا أبيت، وأنا أشعر أن ما تُكلَّف به فوق طاقة رجل واحد؟

قال الشاب بانكسار واضح:

- إنني أحتاج إلى المال يا سيدي، ولن يجوز أن أقتسمه مع أحد، فأنا على علاقة بإحدى الفتيات التي تعمل هنا كماشطة.. تعرَّفت عليها منذ سنتين وتقدمت لطلب يدها ولكنني لا أجد المال لإتمام الزواج، ولا أحتمل نظرة والدها لي، وفي نفس الوقت لا أحتمل فراقها؛ ففؤادي يسكن بين راحتيها..

صمت شهاب الدين قليلًا لأن كلمات ضامن الحمام مسَّت شغاف قلبه، ولكنه استشف شيئًا ما من وراء كلماته.. وعلى الرغم من عدم معرفته به مُسبقًا إلا أنه أصر أن يسأل عنه:

- لكن لماذا لا تتجه إلى أحد أمراء المماليك ليساعدك في حل مشكلتك؟ إنني أعلم أنهم لا يتركون رعاياهم دون مساعدة.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أومأ الشاب برأسه وأصدر تنهيدة تنم عن الاستنكار وقال:

- يا سيدي! إن المماليك لا يهمهم سوى اللهو والترف وإنفاق آلاف الدينارات على «شِوار» بناتهن، وخروج زوجاتهن للحج، ولا ينسون أيضًا رمي الدينارات تحت أرجل الجواري اللاتي يُجلبن لهم من شتَّى بقاع الأرض بغرض المُتعة، ناهيك عن الحفلات والغناء وألوان الطعام التي تُرمى آخر الليل لأمثالي حتى لا تلتهمها صناديق الفضلات!

صمت شهاب الدين وكأنه أُسقط في يده. هل هذه حقًّا هي الصورة الحقيقية للمماليك الذي أصبح واحدًا منهم، هذه الصورة القاتمة هي خلاف كل التوقعات التي كان يضعها في حسبانه.. أهذا هو السلطان المنصور فخر الدين وأتباعه الذين يراهم مثلًا يُحتذى به؟!

شرد شهاب الدين قليلًا في كلام الضامن، وأفاق من شروده على سؤاله:

- سيدي! لم أسمع إجابتك؟

انتبه شهاب الدين على صوت الشاب يخاطبه فبدا له وكأن دهرًا قد مرَّ عليه وهو صامت، فقال متلعثمًا:

- آسف لم أسمع السؤال.

ابتسم الشاب بخجل وقال:

- لقد كنت أسألك يا سيدي عن كينونتك.. أأنت مملوكي؟!

مادة محمية بموجب حقوق النشر

لم يرد شهاب الدين.. فعاد الضامن يكرر عليه السؤال:

- سيدي.. أأنت مملوكي؟

لم يكن عدم رد شهاب الدين وقاحة.. ولم يكن صمته تجاهلًا.. بل كان موقفه نابعًا عن عجز، فهو ما زال لا يعرف، مَن هو؟ وإلى مَن ينتمي؟ هل هو مملوكي حقًّا؟ أم هو عبد كُرجي؟ أم هو مجرد إنسان بلا هوية؟

هل هو حقًّا رجل حُر، أم سيظل سعيه وراء الحُرية قدرًا يطارده للأبد؟!

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مرت أربع سنوات، اكتسب فيها الغلمان كل فنون القتال والدفاع عن النفس، وتربَّت لديهم عقيدة تقوم على ركنين أساسيين هما: الإقدام والشجاعة..

كما استطاع كل المحيطين بهم تزويدهم بكل المعلومات التاريخية عن الوطن منذ فتحه وحتى العصر المملوكي، ولم ينتهِ الأمر عند ذلك، بل أصبحت لديهم فكرة مفصَّلة أيضًا عن المماليك البحرية الذين سبقوهم إلى حكم مصر.

أما مجالس العلم فكانت تُعقد بصفة أسبوعية، على مدار السنوات الثلاث الأخيرة، حتى أصبحت لديهم معرفة وثيقة بالعلوم والفنون والهندسة والشعر، فلم يعُد هناك بابٌ للعلم إلا وطرقوه، فانفتحت لهم طاقة من النور..

لم تكن خطة السلطان منذ بداية الأمر تنتهي عند تحضير جيوشٍ للحرب، بقدر ما كانت خطوة لخلق جيلٍ جديدٍ من الشباب، يستطيع هو وأبناؤه الاعتماد عليه وقت الحاجة..

وها هي اللحظة قد حانت لكي يجتمع السلطان بأبنائه لإزاحة الستار عن أهم مهمة أوكلها إلى نفسه وإلى نائبه الأشرف بركة خان.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

طلب السلطان من الشباب التجمُّع بالبهو الكبير الذي تقام فيه الاحتفالات، وطلب من الأشرف بركة أن يكون متواجدًا ومعه كل معاونيه..

بعد العصر مباشرة تجمَّع كل الحشد الذين طلبهم السلطان، ولم ينقصهم سوى قدومه، بالفعل جاء السلطان في كامل هيئته وهيبته وموكبه، ووقف على المنصة الرئيسية، ثم بدأ كلمته لهم قائلًا:

- لقد اجتمعت بكم اليوم لأخبركم بأن فترة تدريبكم في قلعة الجبل قد انتهت، وأنكم أصبحتم الآن رسميًا من المماليك الذين هم خيرة حكام مصر على مر العصور، وحان الوقت لكي تثبتوا لنا أن الوقت والمجهود اللذين أنفقناهما معكم لم يذهبا سُدًى..

أطرق قليلًا، ثم عاد ليقول:

- سوف يتم تقسيمكم إلى مجاميع، كل مجموعة سوف تقيم في قصر أحد أمراء المماليك حسب احتياجات كل أمير، وفي داخل القصر سوف توظفون حسب الشاغر من الوظائف.. لكن لا بد لكم وأن تُدركوا أنكم هناك في المقام الأول لحماية الأمراء وأسرهم.. إنكم اليوم قادرون على تقديم الحماية والمشورة، أو حتى خوض الحروب إذا لزم الأمر.. هل لدى أحدكم أي استفسار؟

رفع أحد الشباب يده، وأذن له السلطان بالحديث، فنهض واقفًا ثم قال:

- ومَنْ هم الأعداء الذين يجب علينا حمايتكم منهم؟

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أشار له السلطان بالجلوس، وابتسم، ثم عاود الحديث قائلًا:

- لن أختلف معكم في المُسمَّى، فأيًّا كان الأعداء من داخل البلاد أو من خارجها وجب عليكم تقديم الحماية دون تردد، أما هويتهم فسوف تعرفونها في التوقيت المناسب.

استرسل السلطان قائلًا:

- من الممكن أن تنصرفوا الآن لتبدأوا في تجهيز حقائبكم للرحيل..

بدأت أصوات الشباب تعلو في القاعة، فمنهم مَنْ علَّق على الحديث بكلمة.. ومنهم مَنْ همس في أذن صاحبه بكلمة.. ومنهم مَنْ قرر النهوض فأحدث صوت قيامه ضجيجًا.. باختصار ساد القاعة هرج ومرج، وفجأة سكت الجميع وساد القاعة سكون مطبق عندما قام شهاب الدين من مكانه ووجه سؤالًا إلى السلطان جعله يستشيط غضبًا:

- و لكن ماذا عن علاقتنا بأهل البلاد؟ وهل لهم مكان في خططكم؟ ومَنِ المسئول عن تصنيف البشر على كونهم أعداء أم أصدقاء؟!

قام السلطان من مكانه بعد أن صمت الجميع، حين استنشقوا رائحة زوبعة قادمة عقب سؤال شهاب الدين..

- من هم أهل البلاد؟! نحن أهل البلاد.. نحن سلاطين المماليك الذين أصبحت أنت بكل فخر واحدًا منهم.. إنك هنا لتحمينا نحن وأبناءنا دون سؤال أو نقاش، كل مَنْ تحدثت معهم في خلال السنوات الماضية خدعوك وتلاعبوا بمشاعرك، وصدقني.. لقد كنا نعلم أنك دون بقية

مادة محمية بموجب حقوق النشر

زملائك تحاول خلق صداقات يبدو أنها أثرت على تفكيرك، وعلى أي حال أنت سوف تكون في المكان الذي اخترناه لك، وسوف تسعد به دون نقاش.. كما أن الثقة والمنصب الذي سوف نمنحك إياه يفرضان عليك الشكر والعرفان والطاعة العمياء.. لا تبحث عن بطولة زائفة لا تليق بك يا فتى!

تدخل شهاب الدين مرة أخرى في الحوار معقبًا:

- و لكن يا مولاي...

قاطعه السلطان بنبرة حادة لا تشوبها أي عاطفة:

- انتهى النقاش.. هيا اذهبوا لتحزموا حقائبكم.

استدار شهاب الدين وترك القاعة إلى غرفته بعد أن شعر بأنه تلقَّى صفعة على وجهه دون أن تمتد يد إليه.. لم تغير كلمات السلطان شيئًا من إصراره على المعرفة والاستفادة مما تعلمه في الفترة الماضية..

حان وقت الرحيل، فكان وداعه لزملائه هو أكثر الأشياء صعوبة على نفسه، يبدو أن الرحيل كُتب عليه كلما تمنَّى البقاء، مثلما كان فراقه لوالديه يومًا، أصبح اليوم لأصدقائه، شيء أليم تمنى لو اعتاده.. ولكن الفراق مثل السيف يقطع الوصال، ويكتم أصوات الأشواق بين الضلوع..

قام الأشرف بركة خان بتوزيع شهاب الدين وسيف الدين كلٌّ على حدا إلى قصر أحد أمراء المماليك، لكونه المتحكم الأول في وجودهم بالأماكن

مادة محمية بموجب حقوق النشر

التي يرى هو أنهم الأنسب فيها حسب الإمكانيات التي اكتشفها فيهم من خلال مراقبته الدقيقة لهم..

الأول كُلِّف بالعمل في بلاط الأشرف خليل بن برقوق، و الثاني كلِّف بالعمل في بلاط الناصر محمد بن قلاوون..

تعانق الصديقان على وعد باللقاء في بداية كل شهر عربي في حمَّام «الإستادار»..

ولكن قبل أن يحمل شهاب الدين ملابسه ليرحل إلى بيت خليل بن برقوق، وهو على عتبة الخروج من بوابة قلعة الجبل.. استوقفه الأشرف بركة خان بإشارة من إصبعه، وقال له بلهجة آمرة:

- أنت! انتظر.. فلسوف تأتي معي.. تغيَّرت الخطة بالنسبة لك.. لقد اختارك السلطان فخر الدين لتكون بجواره في قصره، وهذا يا بُني لشرف عظيم لك ومكانة سوف يحسدك عليها الجميع.

فكَّر السلطان المنصور فخر الدين مرارًا في أمر شهاب الدين، حين بات مترددًا بين أن يمنحه إلى أحد أمرائه، أو أحد خلفائه، أو أن يبقيه لنفسه..

فوجوده تحت عينيه وفي داخل قصره سوف يجعله قادرًا على منحه الكثير من المهام، بل وسوف يتيح له الاستفادة من قدراته التي استطاع أن يكتسبها في قلعة الجبل.. كما أن السيطرة عليه سوف تكون أسهل للتخلص من فورة الشباب التي تنتابه أحيانًا..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

إنه الحُلم الذي جاء به من بلاد الكرج، الحُلم الذي آمن به، واحتضنه حتى بات حقيقة بين يديه..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

فارس ومملوك

وقف شهاب الدين أمام باب القصر الكبير مبهورًا بروعة بنائه وعظمة المعمار فيه، إن كل شبر فيه يشهد على بذخ صاحب المكان..

تقدَّم شهاب الدين ليجد شخصًا واقفًا في انتظاره يصحبه إلى الداخل، عرف فيما بعد أن هذا الشخص هو «الأسطى دار»[1]، تبعه شهاب الدين إلى داخل القصر فلاحظ انكسارًا في مدخل الدار يضطر معه الداخل من الباب الرئيسي إلى الانحناء غربًا نحو دهليز، ومنه ينحرف إلى فناء الدار الداخلي الذي يتوسطه.. منعًا لرؤية مَنْ يجلس بالداخل، وخصوصًا الحريم.

كذلك لاحظ أن النوافذ بعيدة عن أعين المارة، وعالية لحد أن راكبي الإبل لا يستطيعون رؤية مَنْ بالداخل، حتى المشربيات مصنوعة من نوع من الخشب المخروط به ثقوب تمكن مَنْ بالداخل من رؤية مَنْ بالخارج، والعكس غير صحيح، فيبقى مَنْ في الخارج دخيلًا لا تجرح عيونه ساكني المكان.

---

(1) الأسطى دار: هو كبير المسئولين عن تدبير القصر وجباية الإيجارات، كما أنه المسئول أيضًا عن توزيع العمل ومتابعة التنفيذ بدقة، ويطلق عليه كذلك لقب «الكهرمان».

مادة محمية بموجب حقوق النشر

عندما دلفوا إلى داخل الدار تحدث الكهرمان موجهًا كلامه إلى شهاب الدين قائلًا:

- إن القصر كما ترى مقسم إلى بنايتين رئيسيتين، إحداهما خاصة بالرجال تسمى السلاملك، والأخرى خاصة بالنساء تسمى الحرملك.. والحرملك عندنا أيضًا له مداخل خاصة بالحريم، حيث لا يستطيع أحد التطفل عليهن أثناء الدخول أو الخروج.

صعد شهاب الدين درجات السلم منبهرًا بما يرى، ولا زال يداخله ألف سؤال وسؤال، وبعد دقائق قرر فجأة أن يُفرج عن أحد الأسئلة:

- مَنْ يعيش في الحرملك؟

- حريم السلطان في المقام الأول، وقبل أن تبادرني بالسؤال، فحريم السلطان هن زوجاته ومحظياته، أو بمعنى آخر جواريه.

أصدر شهاب الدين همهمة استغراب لاندهاشه من طريقة حياة لم يألفها من قبل، وعلى ما يبدو أنه سوف يصبح جزءًا منها رغم أنفه، سواء اتفق معها أو اختلف عليها.

تبع شهاب الدين الأسطى دار إلى غرفة نومه، حيث أشار إليه بالدخول فوضع حقيبته الصغيرة على الأرض بجانب السرير وأخذ يتفحَّص كل شبر بعينيه دون أن يُحرك رأسه تأدبًا..

رأى سريرًا صغيرًا في منتصف الغرفة، وصوانًا خشبيًّا لوضع الملابس، ومنضدة صغيرة مصنوعة من الأرابيسك في جانب الغرفة..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

إن الغرفة ليست واسعة ولا ضيقة، لكنها دون شك مُريحة للعين.. شيء ما بداخله أخبره بأنه سوف يكون سعيدًا، أو على الأقل مطمئنًا، في هذا المكان.

خرج الأسطى دار تاركًا وراءه شهاب الدين ليضع ملابسه بالصوان ويستعد لتناول الطعام.. لكنه في الواقع لم يفعل هذا أو ذاك، بل استلقى على السرير و راح يغط في نوم عميق..

أخذته أحداث اليوم من حُلم إلى حُلم..ومن رؤية إلى رؤى.. حتى علا شخيره ليغطي على صوت الرقص في البهو الرئيسي..

عشية اليوم التالي طلب السلطان مقابلة شهاب الدين للتعرف عليه، ولكي يعرفه بمهامه في القصر، دخل شهاب الدين الغرفة مبهورًا بالبذخ الواضح في كل جزء فيها، من مفروشات، وحوائط، وأرضيات، وزخارف رائعة الذوق والجمال، وألوان مبهجة للنفس، مريحة للعين..

الغريب أنه ولأول مرة يدقق في ملامح السلطان عن قرب، وجده رجلًا قوي البنيان، حلو التقاسيم والملامح، وجهه يدل على قوة شخصية، وعيناه تدلان على ذكاء فطري..

دخل عليه ليجده مستلقيًا على أريكة كبيرة، وحوله الأغوات والجواري يعزفن الموسيقى، ويتنافسن في تقديم أشهى المأكولات إلى السلطان في محاولة لنيل رضاه والتقرب إليه.. فمَن تنال ثقته تصبح محظيته، ومَن تستطع الخروج من فراشه بطفلٍ تُصبح زوجته.. وهنا يُصبح التقرب من السلاطين هو حلم كل الجواري..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

دخل شهاب الدين وهو يقدم رِجلًا ويؤخر الأخرى، حتى وقعت عين السلطان عليه، فأشار له بالاقتراب..

نظر إليه السلطان المنصور نظرة فاحصة تبينته من أعلى رأسه حتى أخمص قدمه.. فشعر شهاب الدين وكأنه يقف عاريًا في وسط المكان، محاطًا بنظرات الجميع التي تضربه كالسوط.

ابتسم له السلطان وقال:

- مرحبًا يا شهاب الدين.. مرحبًا بك في بيتنا الذي سوف يصبح من الآن فصاعدًا هو بيتك أنت أيضًا.. لقد تابعتك طوال فترة وجودك بقلعة الجبل عن كثب، وأعتقد أن لديك قدراتٍ وطاقاتٍ هائلة من الممكن استغلالها، كما أنك كنت دائمًا في نظري من الطلبة المتميزين، ولأنني كنت أبحث عن شخص يمتلك مقومات الفرسان.. فكنت أنت أول مَنْ فكرت فيه على الفور، وصدقني إذا أثبتَّ كفاءة في مكانك، سوف ترتقي مناصب أكبر، قد تصل بك إلى درجة أمير، فأبشر ولا تتوانى عن تقديم خدماتك لي.

شعر شهاب الدين بنبرة غرور تمتزج بحديث السلطان فخر الدين، وتساءل بينه وبين نفسه: «ما كل هذا الفخر الذي يستشعره السلطان؟»

بقي سؤال واحد أخذ يطن في ذهن شهاب الدين، أراد أن يُخرجه على لسانه، ولكنَّ شيئًا ما ألهمه بالصمت المُطبق..

وعلى الرغم من عدم جهره بالسؤال، إلَّا أنه سرعان ما جاءته الإجابة عنه:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- لعلك تتساءل ماذا أنت فاعل هنا، أو بالتحديد ما العمل الموكل إليك؟ لقد قررت أن أضعك مؤقتًا في وظيفة الأمير أخور[1]، وسوف يشرح لك الكهرمان ما هي مهامك بالضبط، ما يجب وما لا يجب عليك عمله.. إن العيش هنا يخضع لقوانين وضوابط معينة نكافئ بها مَنْ يُخلص في عمله، ونحاسب عليها مَنْ يُقصِّر فيه، لا تخشَ أي شيء، وتأكد أنك سوف تعيش تحت عباءتي إذا استشعرت إخلاصك، ولو تعرَّضت لأي مشكلة، أرجو أن أكون ملجأك وملاذك.. لا تعطِ أذنك للواشين، والحاقدين، الذين قد يحاولون تضليلك باسم النصيحة.. هل تفهمني يا بني؟!

لا زال شهاب الدين يقف متعجبًا في مكانه، فها هو يستمع إلى السلطان يعطيه نصائح مهمة من وجهة نظره، وعيناه تتفحصان الجواري يتمايلن من حوله ويرقصن في دلال..

ثم يشرد لحظات كي ينسجم مع دقات الطبول والعزف.. تُرى هل يقضي السلطان كل وقته في مثل هذا اللهو؟! أم أن لديه وقتًا آخر يقوم فيه بإدارة أعماله؟! أم أن كل هؤلاء المأجورين في القصر يقومون عنه بهذه المهام حتى يتفرغ هو للجواري والراقصات؟

لم يكن من المفروض أن يقوم بإصدار أي أحكام على مولاه اليوم، فهو بالكاد يعرفه، ومن أهم الدروس التي تعلمها في قلعة الجبل أن يتريث في إصدار أحكامه، حتى تتراءى له الصورة كاملة.. ثم ما هي فائدة إصدار

---

(1) الأمير أخور: هو الشخص المسئول عن الإسطبلات.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أحكام أو قرارات، فهو لا يملك من أمر نفسه شيئًا، لقد أصبح جزءًا من مكان، وصورة لم يخترها لنفسه، ولكنه ينوي الاستفادة منها بشكل صحيح لو أُتيحت له الفرصة.

- لم أسمع صوتك يا بني.. ماذا حدث لك، هل أفقدتك مشاهدة الراقصات قدرتك على النطق؟! أعلم أنك لم ترَ حريمًا منذ فترة طويلة!

قهقه السلطان بصوتٍ عالٍ، وتبعته ضحكات الجواري الجالسات حوله.. مما جعل شهاب الدين يشعر بالحرج الشديد من تعليقه.. فصمت..

ثم عاد السلطان يسأله:

- كم عمرك الآن يا بني؟

رد شهاب الدين بشيء من الاضطراب:

- تسعة عشر عامًا يا مولاي.

ضحك السلطان بصوتٍ عالٍ، وأشار إلى أحد الأغوات الذي يقف خلفه:

- تمامًا مثل بهلوان، إنه أحد أتباعي المقربين، أحبه كثيرًا؛ فهو يضحكني وقتما أستشعر أنني بحاجة إلى الضحك، حتى إن مجرد النظر إليه أحيانًا يُضحكني.

نظر شهاب الدين وراءه ليرى شخصًا منكمشًا وراء كرسي السلطان، قصير القامة بشكلٍ ملحوظٍ، يتميز بكرشٍ منفوخٍ، شعره طويل، منسدل

مادة محمية بموجب حقوق النشر

فوق كتفيه، له عينان ضيقتان، يضع أصباغًا على وجهه في محاولة فاشلة للتشبه بالجواري، كما أنه يرتدي سروالًا أحمر قصيرًا، وخُفًّا أحمر فاقع اللون في قدمه، وعمامة ألوانها مزركشة مثل طبق الفاكهة الممتلئ عن آخره.

هزَّ الشاب رأسه لشهاب الدين محييًا إياه، وردَّ شهاب الدين التحية بإيماءةٍ من رأسه، وفي ذات الوقت كتم ضحكة كادت تصدر منه، لكونها المرة الأولى التي يرى فيها شخصًا بمثل هذه الهيئة المضحكة.

استدار شهاب الدين بعد أن استأذن السلطان ليغادر القاعة، لكنه أشار له مرة أخرى بالجلوس لمشاهدة الرقص حتى يكسر فيه إحساسه بالغربة والخجل، فهو في النهاية سوف يصبح جزءًا من هذا المكان.. عاد شهاب الدين ليجلس بجوار السلطان ويشاهد رقص الجواري ويستمتع بالطعام والشراب حتى انقضى الليل..

في صبيحة اليوم التالي توجَّه شهاب الدين إلى إسطبلات الخيول مع الأسطى دار، حيث قرَّر السلطان أن يبدأ معه من أول السلم الوظيفي في القصر، وقد ذكرها له ضمنًا في حديثه إليه، حيث ذكر أمامه أن الجميع يبدأون من أحقر الأعمال في القصر، ثم تأتي حنكتهم وذكاؤهم ليدفع بهم لأعلى وأعلى، حتى يجدوا لأنفسهم مكانًا وسط السادة من المماليك..

إنه اليوم في منافسة بين ما تعلمه في قلعة الجبل، أمام ما سوف تُكسبه له الحياة من تجارب وخبرات..

حين شقشق النهار أخذه الأسطى دار إلى المطبخ، حيث وجد كل العاملين بالقصر يتناولون طعام الإفطار على مائدة واحدة، جلس معهم

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كما أمر السلطان، ولكنه اختار مقعدًا منعزلًا في آخر الطاولة، وجلس على الدكة أمامها يلتهم ما قدمته لهم الجواري من قمح مطبوخ وشوفان وخبز محمر في اللبن الحليب والفاكهة بكل أصنافها.. ذكرته هذه الوجبة بالطعام الذي كان جزءًا من جدوله اليومي في قلعة الجبل، لقد أنسته الحياة العسكرية بوتيرتها المملة الطعام الذي كانت تعده له أمه، بالرغم من انتمائهم لطبقة متوسطة في بلاد الكرج، وطنه الصغير، إلا أنه لا ينسى اجتماعه مع إخوته وأبويه ساعة المغيب أمام باب المنزل، فوق الحشائش الممتدة لتكسو المساحات الشاسعة، كأنها بساط أخضر يُلقي على المكان شاله الفضفاض الحريري.. كانت هذه الصورة بمثابة ذكرى لا تنضب ولا تغيب أبدًا عن ذاكرته، فقد كان يحاول دائمًا أن ينسى أو يتناسى صورة أمه الجميلة، بشعرها البني الطويل، المنسدل على كتفيها ليداعب ظهرها الممشوق، ثم يتلمَّس طريقه فيعانق خصرها الذي ينافس غصن البان في رشاقته، وكيف كانت ترفعه وتضعه على رأسها مثل التاج، فيراها بعيني الابن المحب مثل الملكة المتوجة..

وكيف استطاع في الليالي الطويلة، وهو يتقلَّب في فراشه بقلعة الجبل يُغالبه النوم، أن يستحضر صورتها وهي تأخذه بين أحضانها بعد عناء يوم طويلٍ في العمل بين البيت والحقل مع أبيه.. لقد كان حضنها هو الملاذ والمأوى بالرغم من قسوة الحياة أحيانًا عليهم، حتى إنه في بعض الأحيان يستطيع أن يشم رائحتها وعبق أنفاسها فتدفعه للنوم على الفور.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كان يتساءل كثيرًا: «كيف هان عليهم أن يتركوه لمصيرٍ لا يعلمونه، وأشخاصٍ لا يعرفون كيف سيعاملونه؟ هل كانت حقًّا مغامرة تمنوا فيها لو صنعوا له مستقبلًا أفضل، أم إنهم تخلوا عنه من كثرة الأعباء، وباعوه مثل أي حصان يباع ويُشترى لكبار المماليك؟!»

يا لهم من مغرورين هؤلاء المماليك! حين ظنوا أنهم قادرون على أن يبتاعوا كل شيء بالمال، حتى البشر أنفسهم..

أصبح حتميًّا على شهاب الدين أن يتعلم كل شيء عن الإسطبلات والعمل بها، حتى يستطيع أن يثبت للسلطان أنه جدير بالمهمة التي أوكلها إليه..

تعرَّف على فخر تمر بغا أمير أخور الكبير، وهو المسئول الأول عن سير العمل في الإسطبلات بأسرها، وهو المخوَّل بتقسيم العمل بين الراخور[1] وسوَّاس الخيل، والأسطوات، وبقية العاملين في المكان..

تبع شهاب الدين الأمير أخور «فخر تمر» إلى داخل الإسطبل وهو يتفقَّد المكان بعينٍ فاحصةٍ..

كان الإسطبل بناءً مسقوفًا، جيد التهوية، يضم عدة منشآت، أولها المكان المخصص لإيواء الخيول، وجزء من الأرض مفروش برمل ناعم، والجزء الآخر مفروش بأعواد من الخشب..

---

(1) الراخور: مسئول العلف في الإسطبل.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

رأى سوَّاس الإسطبل يمسحون أجساد الخيول بفرشاة ويُحمِّمونها، ورأى الغلمان يحملون العَلَف وأكوام القش، ويتحركون بها هنا وهناك، لترتيب المكان، وإطعام الخيول.

اصطحبه الأمير أخور الكبير إلى «الركاب خانا»[1]، وقال وهو يشير إلى أحد الغلمان:

- انظر! هذا هو «المهتار»، أو كبير الغلمان، المسئول عن الركاب خانا..

تقدم إليه شاب بَدَا عليه أن عمره لا يتعدى السادسة عشر عامًا، وانحنى أمامه بشيء من الاحترام، ورسم ابتسامة على وجهه تحمل الترحيب..

بدأ المهتار بجولة اصطحب فيها شهاب الدين ليريه المكان، ويعرفه بالخيل، وأنواعها، في محاولة مبدئية ليأتلف مع المكان..

شرح له أنواع الخيل واستخداماتها، وأكد عليه أن خيل السلطان هي الخيل التي يولونها أقصى اهتمام.. ويطلقون عليها خيل النوبة، وهي تخص السلطان والقواد؛ لذا يُبقونها مُسرجة دائمًا ليل نهار، كما أنها تقف عادة في أقرب مكان لبيت السلطان، فربما يطلبها في أي وقت..

وقف الغلام أمام مجموعة أخرى من الخيل التي تقبع في إسطبل مختلف وقال:

- هذه هي خيول الطلائع التي تخص الاستكشاف، ولا بد أن تكون من أجود الأنواع، سليمة الحوافر وتتمتع بصحة جيدة.

---

(1) الركاب خانة: هو المكان الذي تحفظ فيه معدات الركوب من السروج، واللُّجم، والكنابيش، والمراكيب، وأردية الخيول.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

صمت شهاب الدين قليلًا، وأخذ يتفرَّس في الخيل، ثم أشار إلى مجموعة خيول أخرى تقف على مقربة من هذه الخيول، وسأل:

- ولماذا تبدو هذه المجموعة مختلفة.. ما اسمها؟

رد الغلام المهتار على الفور:

- إنها خيول الكمين.. خيول قليلة الشغب، لا صهيل لها ولا حمحمة، صابرة لا تضجر، حسنة الأخلاق، لا وهن بها، ويشترط أن تكون جميعها من فصيل واحد.

عاد شهاب الدين يسأل:

- بمعنى؟
- بمعنى أن تكون كلها إناثًا أو ذكورًا.
- لماذا؟
- حتى لا تُثير جلبة؛ لأن اجتماع ذكر الخيل وأنثاه عادة ما تُصاحبه جلبة.

ضحك الأمير أخور الأكبر وقال:

- وعادة ما يثير ذلك جلبة بين الآدميين أيضًا!

ضحك الثلاثة ملء أشداقهم.. وعادوا إلى المرور على باقي الإسطبل.. ليستكملوا رحلة شهاب الدين للتعرف على نظام العمل به..

كان شهاب الدين متوجسًا خيفة من الإقدام على هذه المهمة، إلا لو كان متمكنًا منها بشكل يسمح له بإثبات كفاءته، كان يستمع بكل إنصات، ويسجل كل التفاصيل في ذاكرته بكل دقة..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

في نهاية الجولة.. شكر شهاب الدين الأمير أخور الكبير، والمهتار، على المعلومات القيمة التي ذكراها له، وسأل عن طبيعة عمله في المكان، ومسئولياته التي قام الأمير أخور بتوضيحها كاملة.

انصرف شهاب الدين على وعد أن يعود في اليوم التالي ليبدأ مهام عمله الجديد بكل همة ونشاط..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مرَّ عام كامل على تولي شهاب الدين وظيفة الأمير أخور في بلاط السلطان المنصور فخر الدين، وهو يعمل بكل جد ونشاط ليثبت له حسن أدائه..

مع مرور الوقت زادت ثقة السلطان فيه، فقد أثبت شهاب الدين أنه محل ثقة، كان رجلًا بمعنى الكلمة في تصرفاته وأخلاقه، لم يكن تقربًا منه للسلطان، ولكنها طبيعته التي نشأ عليها منذ أن وعى الدنيا، وهي أيضا تربيته العسكرية الصارمة التي اكتسبها في الأعوام التي عاش فيها بقلعة الجبل..

تعلَّم بسرعة شئون الإسطبل وأنواع الخيول، وأصبح خبيرًا في تسريجها وتحضيرها للركوب، وقد خصص له السلطان فرسًا كي تكون طوع أمره وقتما يقرر التريض بها.. وعندما توطدت علاقته بالسلطان، سمح له الأخير بأن يصطحبه في نزهاته الخاصة، وهي منزلة لا تُمنح لأيٍّ من الأشخاص الموجودين في القصر، إلَّا لو كان قريبًا من قلب السلطان..

لم ينسَ شهاب الدين سعادته يوم قرر السلطان أن يكافئه بمنحه بضعة دينارات مقابل دخوله إلى الإسطبل ليجد كل ما فيه نظيفًا، مُرتبًا، لائقًا بدخول السلطان إليه، على الرغم من أن وجوده بالمكان كان من قبل المفاجأة لكل الموجودين فيه..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

فرح شهاب الدين بالمكافأة كثيرًا.

نزل في اليوم التالي إلى سوق «الأخفافين» ليشتري خُفًّا جديدًا كان يحلم باقتنائه، ولكنه كان خفًّا غالي الثمن، واعتبر أن حصوله عليه حلمًا حققه حتى لو كان بسيطًا، فاختيار السلطان لملابسه، وفرض زي معين عليه، جعله يحلم بأن يكون له مذاق خاص فيما يرتدي، ولو من باب التغيير، وكان السراموزة[1] التي يرتديها فوق الخف المثمن حُلمًا سخيفًا لا قيمة له بالنسبة للكثيرين، ولكنه كان لشهاب الدين يعني الحرية.. حرية الرأي والاختيار الذي بات لا يعلم قيمتهما..

في صبيحة أحد الأيام، طلب السلطان حضور شهاب الدين إلى غرفته الخاصة، وقال له:

- شهاب الدين.. أريد أن أعهد إليك بمهمة خاصة جدًّا، فأنا علمت أن ضامنة المغاني في أرض الطبالة تأخرت في تسليم الضرائب إلى الكهرمان الخاص بالقصر.. وقد بعثت إليها بأكثر من مرسالٍ ليعرف سبب تأخرها، فتهرَّبت منهم ولم يستطع أحدهم مقابلتها، وأنا أريدك أن تذهب إليها لتحصيل الأموال، وحيث إنك وجه جديد بالنسبة لها، فمن البديهي أن تستطيع الوصول إليها..

لم يفهم شهاب الدين للوهلة الأولى طبيعة المهمة الموكلة إليه، وارتبك قليلًا حيث إنه لا يعرف في الأصل مَنْ هي ضامنة المغاني ولا طبيعة دورها.. لمح السلطان في عينيه تساؤلات، فضحك وقال له بهدوء:

(1) السراموزة: النعل، وهو نوع من الأحذية الفارسية القديمة.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- يبدو أنك لا تعرف مَنْ هي ضامنة المغاني.. إنها يا فتى السيدة التي تذهب إليها محترفات البغاء، لتسجيل أسمائهن عندها، وبذلك تكون ممارستهن للبغاء من خلال طريق شرعي يجعلهن ينتفعن ماديًا، وفي نفس الوقت نستطيع فرض ضرائب للسلطنة عليهن، وذلك في مقابل حمايتنا لهن.

اندهش شهاب الدين، وبدا على وجهه شيء من الامتعاض، ولكن لم يكن بيده أن يبدي رفضه أو استياءه، وإن لم يمنعه ذلك من التعقيب قائلًا:

- لكن ذلك سيجعل البغاء مُباحًا أمام أعين المارة، بلا رقيب..

رد السلطان بحدَّةٍ:

- كيف؟ على العكس تمامًا، فهذا سوف يجعل له شكلًا لائقًا بدلًا من ممارسته في الظلام بعيدًا عن أعيننا، ثم لماذا لا تستفيد السلطنة منهن؟

لم يستطع شهاب الدين مداراة شعوره أكثر من هذا، حيث خرجت الكلمة من فمه دون أن يحسب لها حسابًا، فقال:

- وهل تستفيد السلطنة من امتهان أجساد النساء؟

بدا على السلطان الاستياء والانفعال في نفس الوقت، فهو لم يتعود على أن يناقشه أحد أو يراجع كلامه، فقال منهيًا الحديث:

- ولِمَ لا؟ فالنساء خُلقن للمتعة.. على أي حال سوف تدرك هذه الحقائق في وقتها المناسب، حين تصبح رجلًا بحق، وتتذوق طعم النساء..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ضحك السلطان وعاد يقول:

- ولو أنه من المفترض أن تكون قد تذوقتهن يا شهاب الدين.. فأنت اليوم رجلٌ.. دعني أكافئك قريبًا بإعطائك جارية من الجواري لتكون بجوارك، لتدفئك في لياليك الباردة.. هيا لا تعطل مصالحي.. واذهب إلى الكهرمان ليصطحبك إلى أرض الطبالة.. هيا.. هيا.

انصرف شهاب الدين وهو في حالة من الاندهاش والاستنكار، فعلى الرغم من المعاملة الكريمة التي يعامله بها السلطان، إلا أنه يعترض على الكثير من سلوكيات الرجال من المماليك.. فيا لهم من متغطرسين متعالين على الجميع!

ذهب شهاب الدين إلى ضامنة المغاني، وقد نجح بالفعل في مقابلتها وأمرها بشيء من اللباقة أن تدفع الضرائب المتأخرة عليها، وهددها بألا تعود إلى هذا الفعل مرة أخرى حتى لا يضطر السلطان إلى توقيع عقاب عليها قد لا تحتمله..

انصرف شهاب الدين بعد أن أعطى الكهرمان النقود ليوصلها إلى السلطان، وطلب منه أن يستأذن له من السلطان ليسمح له بالغياب لباقي اليوم، فقد قرر أن يمضي إلى حال سبيله ليتريض بعيدًا عن القصر.. لقد شعر باختناقٍ بعد الدور الذي أُسند إليه من قبل السلطان، والذي شعر بأنه دور مهين لا يناسب أخلاق الرجال..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ظلَّ شهاب الدين يتجوَّل لفترةٍ طويلةٍ بين شوارع القاهرة.. ذهب إلى بولاق وجلس على شاطئ النيل.. كان ينظر إلى صفحته بكل شوق وغموض.. وكأنه يسأله: «تُرى ماذا يحمل الغد لي؟»

هو في مكان يتمناه كثيرون.. السلطان يأتمنه على الكثير، ويعتبره من الحاشية المقربة، ولكنه بالرغم من كل ذلك لا يستشعر طعم السعادة، ولا يجد لدوره الأهمية التي كان ينتظرها حين كان في قلعة الجبل..

طالت جلسته أمام النيل.. حتى داهمه الليل دون أن يشعر..

دون أن يدري لماذا ولا كيف؟ قرَّر في لحظة أن يذهب إلى مكان سمع عنه كثيرًا، ولكنه أبدًا لم يرتده.. سوق الشماعين..

لقد سمع من رفاقه في القصر عن لياليهم في سوق الشماعين الذي تظل حوانيته مفتوحة إلى ما بعد منتصف الليل، فهو سوق متخصص في بيع الشموع الضخمة التي تُحمل في المراكب في الرحلات الطويلة..

وصل شهاب الدين إلى السوق وكله شوق ليرى المكان.. إنها مجموعة كبيرة من الحوانيت التي تُعلق الشموع والفوانيس على أبوابها فتجعل للمكان بهجة خاصة تقع في النفوس فور أن ترتسم الصورة في ذهن مرتادي المكان..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

إن علاقة العين التي ترى الجمال بالبهجة علاقة وثيقة لا تنفصل.. فالجمال الذي تنبض به شوارع وأزقة ومنابر المدينة جمال يجعلها عروسًا ترقص على ألحان زائريها..

فالسر في الغرام الذي يولد في نفوس عشاقها، ليس له علاقة بالموقع ولا المناخ.. إنه غرام له علاقة بقصة حب تحملها مياه النيل، ورائحة الأماكن، ولون الذكريات في قاهرة المعز..

أدهش شهاب الدين مجموعات الشباب التي تقف متناثرة هنا وهناك أمام الحوانيت، فمنهم مَنْ يجلس على المقاهي لشرب النارجيلة، ومنهم مَنْ يقف أمام الحوانيت للتسامر وتبادل الحديث..

قضى شهاب الدين ساعة كاملة في التجوُّل بين الحوانيت في محاولة لاستكشاف المكان والاستمتاع بتفاصيله وملامحه وعبقه الساحر..

وصل شهاب الدين إلى حانوت به شموع كبيرة تصل وزن الواحدة فيه إلى قنطار كامل، ولاحظ فى غرفة مجاورة للحانوت رجلًا يصنع الشمع، فتسمَّر في مكانه محدقًا فيه.. أسرته الطريقة الدقيقة التي اعتادت أصابعه التعامل بها مع الشمع الخام، وكيف أنه بحسِّ الفنان، وأنامل المحترف، أخذ يقوم بوظيفته بكل هدوء وتدقيق وتركيز..

رجع قليلًا إلى الـوراء حتى يتسنَّى له رؤية الرجل بشكل أقرب وأوضح.. فإذا به دون أن يشعر يصطدم بشخصٍ وقف خلفه يراقب هو الآخر..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

يبدو أن الصدمة كانت قوية حتى إنه سمع صوت ارتطام شيء سقط من يد الشخص الذي اصطدم به على الأرض..

التفت شهاب الدين مسرعًا كي يعتذر، ودون أن يفكر للحظة ارتبك ونزل إلى الأرض ليلملم ما سقط من خيال الشخص الذي اصطدم به..

في نفس اللحظة نزل الشخص الذي اصطدم به شهاب الدين إلى الأرض ليلملم ما سقط منه..

التقت عيونهما دون ميعاد، فإذا بها فتاة رائعة الجمال، بشرتها بيضاء بلون حليب القمر، وعيناها زرقاوان كأن مياه البحر تسكنهما، ممشوقة القوام، وشعرها الأصفر ينساب جدائل فوق كتفيها..

من هي؟ وأين رآها من قبل؟ لماذا خفق قلبه عندما التقت عيونهما؟

إنه يحاول أن يتذكر ملامحها.. أن يتذكر ذلك الوجه الملائكي الذي كاد يجزم أنه هبط عليه من السماء..

نهض واقفًا ونهضت هي.. قال هامسًا:

- أعتذر بشدة..
- أنا التي يجب أن أعتذر.. فأنا وقفت خلفك وسرحت في صانع الشمع.. إنها ليست غلطتك على أي حال.. أنا آسفة.

توقف الحديث بينهما قليلًا.. ثم عاد شهاب الدين ليلتقط طرفه مرة أخرى:

- هل التقينا من قبل؟

مادة محمية بموجب حقوق النشر

صمتت ولم ترد.. وكأن شيئًا في عينيها أبى الإجابة..

توقف لحظة ليتذكر، فقد كان على يقين من أنه قد التقاها من قبل، وأخيرًا أطلت من عينيها الإجابة.. فرموشها تنطق برائحة المكان، وعيونها تبوح بذكرى أقوى من الواقع.

- نعم.. تذكرت.. لقد التقينا في السوق يوم كنتِ ...

لم يستطع قول المزيد، فقد تذكر الواقعة..

تذكر أنه رآها في السوق تتشاجر، يوم كان تاجر العبيد يعرضها للبيع، وهي ترفض المساومة.. لقد توقفت الكلمات في حلقه، فلم يستطع جرح مشاعرها، ولكنها قرَّرت أن تكمل جملته:

- نعم.. تقابلنا يوم كنت أدافع عن كرامتي التي أهدرتها العيون ومزقتها الأيادي الآثمة، وجئت أنت بسيف الفارس لتفرقهم من حولي.. بحثت عنك كثيرًا كي أشكرك، ولكنك اختفيت فلم أجدك.. لكن ها هو القدر يجمعنا من جديد لأشكرك.

- لا شكر على واجب، كنت أتمنى أن أعرف منك كيف وصلتِ إلى هناك؟ وحيث إن مثلك مثل كل الجواري الأخريات، لماذا وقفتِ تصرخين في وجوههم وكأنهم يسرقون الكحل من عينيك؟

ابتسمت وصمتت..

استدارت عندما قررت الرحيل.. وقبل أن تنطلق قالت بهدوء:

- هذا موضوع يطول شرحه..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- عندي الوقت لأستمع.

لملمت طرف ثوبها، ومدت يدها إليه لتصافحه، فألقى ما بيده ليلتقط يدها بكل احترام.. عادت تقول:

- دعنا نلتقِ في يوم آخر، ربما يتيح لنا الوقت المزيد من التواصل.. أراك قريبًا إن شاءالله، وليكن في أول الشهر العربي القادم في نفس المكان.. حارة الشماعين.

هزَّ شهاب الدين رأسه علامة الموافقه، وارتسمت على وجهه ابتسامة لم تكن سوى ابتسامة رضا وسكون..

استدارت ومضت في طريقها بشموخ وكبرياء لم يعهدهما في أنثى من قبل..

قبل أن تختفي من أمامه.. تذكَّر أنه لم يسألها عن اسمها.. فجرى وراءها وصرخ بصوتٍ عالٍ:

- انتظري! لم أعرف اسمك بعد!

ضحكت عيناها، ورقص شعرها على جبينها، وهي تتمايل بخفة، وأنوثة فائضة في طريقها، وقالت والخجل يعتري صوتها:

- قمر..

ابتسم لها وقال:

- اسم لا يحمل أي إنصاف لكِ، لكنه بالقطع مُنصف للقمر!

مادة محمية بموجب حقوق النشر

مضت في الطريق الطويل بين الشموع والقناديل المُعلقة أمام أبواب الحوانيت تتهادى وكأنها طيف ملائكي يغيب من دنيا الواقع إلى درب من الخيال..

مضت.. وظل السؤال حائرًا في رأسه: «تُرى.. هل سيلتقيها من جديد؟»

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ازدادت ثقة السلطان في شهاب الدين، فلقد أثبت له بهدوئه وذكائه وثقافته التي تعود أن ينتهلها من الكتب، أنه جدير بمنصب الأمير أخور الذي وضعه فيه، فالسلطان كانت له نظرة ثاقبة تدل على أن شهاب الدين رجل بحق، من الممكن الاعتماد عليه في إدارة شئون الإسطبلات، وأحيانًا القصر إذا لزم الأمر..

فالإسطبل في حياة السلاطين لم يكن فقط مكانًا لتربية الخيل والعناية بها، بل هو مكان مهم أيضًا سياسيًّا؛ لأنهم يستخدمونه في حسم المنازعات، وتوزيع الثروات..

كما أن الإسطبلات التي يمتلكها الأمراء، ومدى فخامتها، وعدد الخيول بها، تعكس وسط المجتمعات السلطانية أهمية الأمير، ومدى نفوذه، وقوة مركزه.

مرَّت الأيام تتسارع وتتسابق وصورة «قمر» لا تبرح خيال شهاب الدين، كان يرى شيئًا مختلفًا في عينيها لم يره من قبل.. هل آن لقلبه الصغير أن يقع في الحب؟ وهل أحبها فعلًا أم إنها مجرد أوهام ومشاعر مراهقة بلا أساس؟

- إنها قطعًا مشاعر مراهقة بلا أي أساس من الصحة.

كانت هذه هي الإجابة التي رد بها عليه سيف الدين حين قرر أن يحكي له عما يدور بخلده، يوم التقاه في حمام «الإستادار» كما اتفقا..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- لكنها مخلوقة مختلفة.

رد سيف الدين وهو يحاول التقاط أنفاسه داخل حمام البخار:

- مختلفة عن ماذا يا شهاب الدين؟ أنت لم تكن لك أي تجارب سابقة حتى تستطيع أن تحكم على النساء كونهن مختلفات، وخصوصًا الجواري منهن.

استغرب شهاب الدين من كلام صديقه، وعاد يسأله:

- أي تجارب؟ وهل كانت لك تجارب حتى تتباهى بها أمامي؟!

ضحك سيف الدين ملء شدقيه، وقال بثقة الرجال، حين تصبح حروبهم فقط هي امتلاك قلوب النساء، أو غزو أجسادهن في المعارك:

- لماذا لم تجرب الانفراد بإحدى الجواري في القصر، بعد استئذان السلطان طبعًا، وأنا هنا لا أعني جواري السلطان ذاته.. أو ربما لن تحتاج هذا؛ ففي الكثير من الحارات توجد النساء التي تتمنى أن تقضي معك ليلة مقابل دراهم قليلة، وأحيانًا يتمنين ذلك لمجرد الاستمتاع بكونهن بين أحضان فارس مملوكي..

صمت سيف الدين قليلًا ليبتلع ريقه، وعاد يقول:

- لقد خضت هذه التجربة مع إحدى الفتيات اللاتي كنت قد التقيت بهن في جزيرة حليمة، وكانت ليلة من ألف ليلة وليلة.. يا لها من متعة تلك التي سوف تتذوقها يا صديقي العزيز لو جرَّبت أن تكون بين أحضان

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أنثى دافئة كل ليلة.. وكم تشتعل المتعة حين تتغير تلك الفتاة كل ليلة فلا تمل التجربة ولا تعطي الفرصة لقلبك كي يقع في الحب أو أن يسكنه الوهم.

هزَّ شهاب الدين رأسه وقال بشيء من التعقل:

- ربما يكون الحق معك، وعلى أي حال أنا لم أخُض تلك التجربة بعد، وليس لديَّ أي مانع من خوضها من باب المعرفة، الأنوثة بهجة، وأتصور أنه من الأجدر أن أستشعرها بنفسي.

ضحك سيف الدين مرة أخرى، وربت كتفه بكل قوة، وقام من مكانه فارتدى خُفَّه في طريقه إلى المغطس، وقال موجهًا كلامه لشهاب الدين:

- هكذا تكون الرجال، ولا تنسَ أن الفرسان يحتاجون إلى ترفيه أيضًا كي يستطيعون أن ينتصروا في المعارك، وهكذا ستأخذنا المعارك الصغيرة إلى تلك المعارك الكبيرة.. ولِمَ الانتظار؟ هيا بنا بعد أن نرتدي ملابسنا لآخذك إلى سيدة سوف تجد لك من الجواري مَنْ قد تمنحك المتعة بين أحضانها..هيا!

ضحك الاثنان وغادرا المكان..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

قدر ولقاء

وقرَّرا أن يلتقيا في نفس المكان.. في أول الشهر العربي..

وقف أمام نفس الحانوت ينتظرها.. عيناه ترقبان، وقلبه يدق.. إنه يبحث عن عينيها علَّها تهديه لبر أمان..

لقد استمع إلى نصيحة صديقه سيف الدين وقضى أول ليلة في حياته بين أحضان امرأة.. جارية.. دفع ثمن أوقات متعته بين أحضانها دراهم قليلة..

لقد استمتع دون شك بليلته معها، واستمتع بإحساس رجولته التي رآها في عينيها، واستمتع بشعور القوامة وهو ينصت إلى دقات قلبها كلما زاد التصاقًا بها..

نعم استمتع بكل دقيقة دفع ثمنها، ولكن شعوره أن كل لحظة من المتعة كانت في مقابل المال جعلتها متعة بلا قيمة.. متعة مات بين دقائقها الشعور..

هذا بالإضافة إلى أن شيئًا ما لا زال يدفعه لاكتشاف الغموض الذي يحيط بـ«قمر» وظهورها مثل القدر في حياته.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أفاق من شروده على «قمر» تهبط السلالم في أول السوق.. أخذ يتابعها بعينيه وهي تتهادى في طريقها إليه، وحتى وصلت إلى الحانوت الذي يقف عنده شهاب الدين..

ابتسم لها ومد يده ليصافحها، ابتسمت وقالت له:

- هل تأخرت عليك؟ إن اليوم هو أول الشهر العربي كما اتفقنا، لم أكن على يقين من أنك سوف تأتي.. لكنَّ شيئًا ما دفعني لأحترم وعدي وآتي إليك.

سكت شهاب قليلًا فلم يرد على الفور، كان هائمًا بين عينيها، وقال بعد صمت قصير:

- أما أنا فشيء ما في عينيك دفعني لآتي مرة أخرى.. لأستمع إليكِ.. إنني أريد أن أتعرف عليكِ وأعرف حكايتكِ التي أعتقد أن بها الكثير لترويه.

سارا معًا في سوق الشماعين، متجاورين، ينتقلان بهدوءٍ بين الحوانيت، تارة يشاهدان صُناع الشمع، وتارة يستمعان إلى الغناء القادم من جوانب السوق، حيث يفترش بعض المنشدين الأرض ويتسابقون في إلقاء الأشعار وترديد المواويل والأغاني..

لقد وجد شهاب الدين أمام أحد الحوانيت كرسيين من الخشب، وضعهما صاحب الحانوت ليسهل على كبار السن مهمتهم في الشراء.. فأشار لها بالجلوس، وجلس قبالها ينظر بإعجاب لخصلات شعرها الذهبي وهي تموج بأشعة الشمس في الغروب الأرجواني.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

سألها:

- احكِ لي.. قولي لي.. مَنْ أنتِ؟ ومن أين جئتِ؟ وأين تعيشين؟ هل أنتِ حُلم أم حقيقة؟

ابتسمت بنصف شفاه، واعتدلت في جلستها وقالت:

- أنا لم أولد جارية، ولكن كُتب عليَّ أن أصبح جارية، لم أكن أعلم يوم أخذوني من أمي وأبي وأخوي أنني سوف أصبح سلعة تُباع وتُشترى لمن يمتلك أكثر.. كنت طفلة صغيرة، ألهو وألعب في فناء بيتنا الكبير في تركستان، بيت يطل على حديقة ليست ملكًا لنا، ولكنها ملك لكل أهل المنطقة، لم يكن لديَّ من الهموم ما كان لدى والدي، فلم أكن أعي معنى الفقر والجوع والحاجة؛ لأن أمي كانت تعمل طاهية في بيوت الأغنياء من الأحياء المجاورة، وكان أبي يعمل حدادًا، ولكن عمله ليل نهار كان لا يسمح له برؤيتنا أنا وأخوي الأكبر مني.. كنت أنا دميته الصغيرة التي كان يبحث عن الوقت ليأخذها بين أحضانه.. كنت له الابنة والحبيبة، وكان لي القدوة والملاذ.. كان يحكي لي كل يوم عن قصة حبه لأمي، وعن مدى احترامه لها، وكانت أمي تحكي لي عن حبه الذي سكن قلبها..

سكتت لثوانٍ ابتلعت خلالها الدموع التي كادت تفر من عينيها، ثم عادت لتستكمل حكايتها:

- وفي أحد الأيام صحوت على صراخ والدتي؛ فقد أصيب أبي في حادث، ولم يعد قادرًا على كسب قوت يومه، وعرفنا طعم الفقر حتى تدخَّل

مادة محمية بموجب حقوق النشر

القدر لينقذنا على يد أحد النخاسين الذي كان مشهورًا في البلدة وقتها باقتناء الفتيات الصغيرات ومنح ذويهم أموالًا مقابل ذلك، الحقيقة أن قدري لم يبحث عني، ولكن أبي بحث عنه.. فقد أراد أبي أن يمنحني الحياة الكريمة التي لم يستطع هو أن يمنحها لي.. حزمت حقائبي وذهبت مع النخاس وسط دموع أمي وكلمات أبي بأن أتشجع، وأمنيات أخوي بحياة أفضل..

كان يستمع إليها بحواسه كلها، وبقلبٍ ينبض بالاهتمام، فأضافت بعد لحظة شرودٍ:

- نسيت أن أقول لك إنني كنت أبلغ من العمر وقتها تسع سنوات، حين انتقلت إلى «سمرقند» مع النخاس الذي أعطاني بدوره لمجموعة من النساء اللاتي يسكنَّ في بيت كبير، به الكثير من الغرف، عرفت فيما بعد أنه المكان الذي يتم فيه تربية الفتيات وإعدادهن إلى أن يصبحن جواري جميلات، وتبرز فيهن معاني الأنوثة شكلًا وموضوعًا، فيأتي نخاس جديد ليصطحب كل مجموعة إلى بلد، حيث يتم بيعهن بشكل رسمي إلى السلاطين والأمراء.. تعرَّفت على العديد من الفتيات في مثل سني، وارتحت كثيرًا إلى السيدة التي كانت تشرف على تربيتنا جميعًا.. لكنني لم أنسَ أبدًا صورة أمي والدموع تترقرق في عينيها وهي تصحبني إلى الباب وتسلمني للنخاس، ولم أنسَ أبدًا كلمات أبي وهو يهمس في أذني متمنيًا لي التوفيق في حياتي الجديدة.. كانت كلماته وستظل هي طريقي وحلمي، لم أرهم بعد هذا اليوم، ولكنهم كانوا زوارًا دائمين على أحلامي كل يوم..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

استولى الفضول على شهاب الدين فكان يلاحق الأحداث التي ترويها، قبل أن يسألها بشغفٍ تبوح به كلماته:

- وماذا عن رحلتكِ إلى سمرقند؟

قالت:

- تعلَّمت في سمرقند الشعر وقراءة الأدب والرقص، والأهم من هذا وذاك أتقنت فن معاملة الرجال! تعلمت فنون الحياة التي لم تعلِّمها لي أمي، وتعلمت كيف أكون أنثى.. وحين أتممت عامي السادس عشر، جاء إلى البيت الكبير عدة نخاسين جلسوا في حلقة كبيرة، وتم عرض جميع الفتيات عليهم ليختاروا ما يناسبهم، فمنا مَنْ ذهبت إلى بغداد، أو البصرة، أو دمشق.. واختاروني أنا لأذهب إلى القاهرة.. كنت أعلم أنهم اشترونا بأغلى الأثمان، وسوف يبيعوننا لمن يدفع أكثر..

صمتت قمر قليلًا، وعادت بالذاكرة إلى مكان بعيد، وسرحت لثوانٍ صامتة، ثم عادت تقول وكأن الكلمات تقتحمها من جديد:

- أتذكر الآن كلمات همست بها في أذني سيدة الدار الكبيرة قبل أن أغادر المكان، وكانت نصيحتها الأخيرة لي: «أنتِ أجمل الفتيات عندي، وأكثرهن ذكاءً، ولكنكِ تحملين رأسًا عنيدًا، ولا تستمعين للنصيحة بسهولة، استعملي ذكاءكِ في الفوز بسلطان تمنحينه طفلًا يصبح خلاصكِ من العبودية للأبد.. تذكري أن الطريق سهل وأنتِ تمتلكين مفاتيحه.. ولكن تخلي عن عنادكِ قليلًا واستغلي جمالكِ يا صغيرتي.. لقد جئتِ لنا طفلة غريرة، وها أنتِ اليوم شابة رائعة الجمال، وربما

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تصبحين غدًا امرأة متوَّجة على عرش قلب أحد السلاطين فتمتلكين العالم».. تعوَّدت أن أستعيد كلماتها كل يوم قبل أن أنام وأحلم بالأمير الذي سوف يخطفني على حصانه ويطير.

صمت شهاب الدين، فقد أخذته قصتها إلى مكان آخر، أخذته إلى حياته قبل أن يصل إلى قلعة الجبل، فطفولتهما واحدة، والطريقة التي وصلوا بها إلى سلطنة المماليك واحدة.. فكلاهما يبحث عن حُلم، وكلاهما في انتظار طريق يصل بهما إلى النهاية التي تمناها كلٌّ منهما..

عاد يسألها:

- أخبريني إذن كيف وصلتِ إلى السوق في المكان الذي رأيتكِ فيه لأول مرة؟

تنهَّدت طويلًا، ثم قالت:

- لقد وقعت في يدي أحد التجار الجشعين الذي لا يبالي بأي شيء سوى الدنانير، فلا يبالي بأصل ولا مكانة مَنْ يبتاع منه الجواري، بل ويصر على عرضنا عراة لا تغطي عوراتنا سوى قطعة رقيقة من القماش! وقد رفضت هذه الطريقة رفضًا باتًّا لشعوري بالإهانة الشديدة، كما أن الطريقة التي تمتد بها أيادي الرجال لتتحسَّس جسدي وشعري تُشعرني بالامتهان، حتى نظرات العيون الجائعة لي تشعرني بالاشمئزاز والغضب.. لذا قررت أن أتسلح بالشراسة للدفاع عن وجودي وأحاول بقدر المستطاع أن أبدو غير مهندمة حتى لا يتم اختياري كجارية من قبل

مادة محمية بموجب حقوق النشر

شخص متوحش بربري، وقررت أيضًا أن أكون في قوة إناث النمور، حتى لو كان ما أحمله بين ضلوعي من مشاعر في وداعة الحملان..

- إذن فأنتِ لا تريدين أن تصبحي جارية.. ألم يكن هذا حلم أبوك وحلمكِ أنتِ شخصيًّا؟ وعندما جئتِ إلى هنا، ألم تكوني تعرفين بأنكِ سوف تصبحين جارية؟

ردَّت بوجهٍ تعلو قسماته القسوة:

- نعم.. للأسف كنت أعلم.. لكني لم أكن أعرف المعنى الدقيق لكلمة جارية حين حضرت إلى هنا، ربما أكون قد أصبحت جارية، ولكنه فرض القدر وليس اختياري، أريد أن أصبح حُرة، وأريد أن أقع في غرام حقيقي لرجل واحد فقط يمنحني الحب والحرية كسيدة عرش حياته.. ولن أرضى أبدًا أن أصبح فريسة في يد كل مَنْ يبغي امرأة.. كلَّا.. لن تنتهي أحلامي بين أحضان الرجال هكذا أبدًا.. كلَّا.

غربت الشمس على حديثهما وهما أمام بوابة حانوت الشموع، فقام شهاب الدين ليصطحبها إلى دار النخاس الذي تعيش فيه حتى يصبح من السهل عليه أن يعود إليها حينما يريد لقاءها من جديد..

أوصلها إلى أقرب مكان للدار بحيث لا يراها النخاس أو أحد أعوانه..

قبل أن يتركها لتذهب، التفت إليها وقال:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- لقد استمتعت بوجودي معكِ اليوم، واستمتعت أكثر بقصتكِ التي كنت ألمحها مختبئة بين جفونكِ منذ رأيتكِ أول مرة.. اهتمي بنفسك، وسوف نلتقي قريبًا جدًّا.. إلى اللقاء.

ذهب.. وذهبت..

وغابت الشمس..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

لم يكن وجود قمر في بيت النخاس يعطيها شرعية صاحبة الدار، ولا حتى إحدى مريديه.. فقمر كانت تشعر منذ يومها الأول في بيت النخاس بأنها قد تحوَّلت إلى بضاعة يتاجر بها النخاس في الأسواق..

وعلى الرغم من أنها تعرَّفت على عشرات من الجواري منذ أصبحت واحدة منهن، إلا أنها لم تكن تشعر بغضب أي منهن.. فأغلب الجواري اللاتي كُنَّ يعشن في قبضة النخاس، لم يكن يشعرن بمثل شعورها الجارف الممتزج بحنقٍ وغضبٍ، وكانت أقصى أمانيهن أن يقع في غرامهن أحد الأمراء أو الخلفاء حتى يطلبهن إلى مخدعه، وهنا تأتيهن فرصة إنجاب ولي عهد له يمنحهن لقب «حُرة»..

لكنها لم تكن مثلهن.. كانت لقمر أحلام أخرى، كانت ترفض أن تُصبح مجرد وجه جميل، أو جسد ممشوق.

كانت تشعر بكونها مختلفة، لقد تركت والديها من أجل حياة أفضل لها ولهم، لكن كيانها كان الحقيقة الوحيدة التي تبحث عنها..

كان يجب أن تتحدث إليها مديرة منزل النخاس المسئولة عن تعليم الجواري، والإشراف عليهن حتى يتم بيعهن.. قالت لها قهرمانة المنزل[1]:

---

(1) القهرمانة: هي المسئولة عن كل ما يجري بالحرملك، كما أنها مَنْ تقوم بانتقاء الجواري، والإشراف على تعليمهن، ثم توزيعهن على الأعمال المختلفة بالقصر.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- قمر.. يجب أن تتوقفي عن الطريقة التي تتعاملين بها مع كل مَنْ يحاولون شراءكِ.. لقد أصبحتِ تستفزين النخاس وهو في طريقه لأن يُخفض من سعركِ حتى يتخلَّص منكِ.. وهذا يعني بكل بساطة أن مَنْ يشتريكِ لن يكون بالضرورة واحدًا من علية القوم الذين يمتلكون الأموال، لكن سعركِ البخس سوف يجعلكِ في متناول أيدي كل مَنْ هَبَّ ودَبَّ..

ردَّت قمر بتهكُّم:

- وما الفرق بين هذا وذاك؟

ابتسمت القهرمانة وقالت وهي تتعجَّب من سذاجة قمر:

- الفرق كبير.. لن تدركيه إلا عندما تُصبحين بين أيدي مَنْ لا يُدركون قيمة جارية جميلة مثلك.

ردت قمر:

- صدقيني يا سيدتي، لا يوجد فارق حقيقي بين مَنْ يبتاعون أجساد النساء بالمال.. فهم جميعًا لا يُدركون قيمة المرأة ولا يحترمونها؛ لأنهم بالقطع لا يحترمون أنفسهم.. فالمتعة لا تُشترى بالمال..

ردت القهرمانة، وقد أدهشها اعتراض قمر وكلامها رغم صغر سنها:

- إنهم لا يبتاعون الجواري فقط من أجل المتعة، ولكنه الحُب يا عزيزتي..

ابتسمت قمر، وهزَّت رأسها بشيء من الاستهتار وقالت:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- الحب! شتَّان بين الحب والمتعة، فالحب لا يُشترى ولا تُجبر عليه النساء.. الحُب قدر وحُلم وكرامة.

قررت القهرمانة أن تتحدث حديثًا من القلب مع قمر، لقد شعرت بأنها مثل ابنتها التي فقدتها في حادث غرق أودى بحياتها.. شعرت بعناد في نبرة صوتها، وتمرُّدٍ في ملامحها لم تشعر به من قبل مع أي جارية أتت إلى المنزل..

- استمعي إليَّ يا بنتي وحاولي استيعاب ما أقوله لكِ، لقد خُلقنا نساءً، وفي مرتبة أقل من الرجال، نحن النساء يجب علينا أن نضع ذلك في الحُسبان.. المرأة الذكية هي التي تستطيع الفوز بقلب الرجل بتقديم المتعة له.. فأنتِ حين أصبحتِ جارية، وافقتِ على أن تصبحي امرأة في بلاط كل الرجال.. إلى أن تجدي الرجل الذي سوف يمنحكِ حريتكِ، ولكن في مقابل أن تستخدمي ذكاءك لتصبحي واحدة من حريم الأمراء أو السلطان.. وقتها سوف تعرفين أنك كسبتِ كل شيء.. فالعناد لن يصل بكِ إلى أي شيء.

ردت قمر:

- ما قيمة أن يكسب الإنسان كل شيء ويخسر نفسه؟! إنني لن أقبل أبدًا أن أُقدِّم نفسي للرجال مثل البضائع في الأسواق.. المرأة لم تُخلق في مكانة أقل من الرجل، إن جسدي لن يصبح ملكًا لأحد، إلا لشخصٍ واحدٍ فقط.. وهو الشخص الذي سوف أمنحه حُبي وإخلاصي.. إذا كنتِ

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تريدين مساعدتي حقًّا، أرجو أن تتيحي لي فرصة تعلُّم الشعر وكتابته..

عقدت القهرمانة حاجبيها من الدهشة، كم هي فتاة عنيدة! كم تحمل أحلامًا كثيرة بين ضلوعها، يكاد تحقيقها يكون مستحيلًا!

كان من الممكن أن تفقد أعصابها وتأمرها دون نقاش بأن تنفذ أوامر النخاس، ولكن قُرب ملامحها الشديد من ملامح ابنتها الراحلة، جعلها تتعاطف معها، بل وتقترب منها في محاولة لأن تمد إليها يد العون..

- وماذا تعرفين أنتِ عن الشعر يا قمر؟

أشرق وجه قمر بالسعادة، حين شعرت أنها استطاعت أن تُقنع القهرمانة بأن تُنصت إليها وتستمع أخيرًا إلى وجهة نظرها:

- لقد تعلَّمت الأدب والشعر حين كنت في سمرقند، وشعرت بأنني أنجذب للشعر بكل حواسي، لقد وجدت نفسي أسطر الشعر كلما جلست وحيدة، كلما شعرت بالضيق أو بالسعادة أجد القلم يجري ليسطر الأبيات فوق الأوراق، فينقل أحاسيسي ومشاعري من حيث سجنها الخوف وكبتتها التقاليد.. لقد عرفت من خلال قراءاتي أن هناك بعض الجواري اللاتي تخصصن في كتابة الشعر وإلقائه.. أرجوكِ ساعديني لأحقق حلمي!

أخذت القهرمانة تفكر فيما يدور بخلد هذه الفتاة.. فالطموح من الأشياء الجميلة التي تتميز بها الجواري، ولكن من الطموح ما قتل، شردت القهرمانة قليلًا قبل أن تقول:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- عندكِ حق، إن الخلفاء والكبراء تعوَّدوا أن يلتمسوا الأدب والفنون عند الجواري المثقفات الشهيرات، ولطالما قدروا الجواري بقدر ما عندهن من الفنون والعلوم والآداب، وهكذا استطاعت الجواري والسبايا على مرِّ العصور أن يُحسنَّ من منزلتهن عند سادة القوم، وتسامح الناس في مساواة أولادهن بأولاد الحرائر.. دعيني أدلك على طريق تسلكينه حتى تصلي لمأربكِ.

انتهى الحوار بين قمر والقهرمانة بعناق وقبلة طبعتها قمر فوق رأس القهرمانة..

استطاعت القهرمانة أن تقنع النخاس بأن يُعطي لقمر فرصة تعلم الشعر الذي تعشقه، وبالرغم من رفضه في البداية، إلا أنه اقتنع مع الوقت بعد أن أقنعته القهرمانة بأن الفائدة سوف تعود عليه بأموالٍ أكثر إذا أصبحت قمر من هؤلاء الجواري اللاتي يُتقنَّ الشعر..

وحيث إن الجواري اللواتي يحذقن أساليب التعبير كان يجري إعدادهن للمهمة التي سيضطلعن بها في ميادين الأدب والغناء..

قررت القهرمانة أن تبعث بقمر إلى أحد «بيوت القيان»، وهي البيوت المُعدَّة للسماع والشعر في الأحياء المختلفة، والتي يقصدها الناس لسماع الشعر والغناء، بما يتوافر لهم فيها من المُتع الحسية..

أصبح ذهاب قمر إلى بيت القيان من الأشياء التي تُدخل السعادة على قلبها، أدركت أنها خُلقت لتكتب الشعر، ومع الوقت تعلَّمت أن تُلقيه

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وتتبارى مع الرجال في إلقائه وسط المحافل، حتى ذاع صيتها في محافل الشعراء وجلساتهم الخاصة..

وفي أول مجلس ذهبت إليه وهي جارية الشعر والأدب..

التف حولها الرجال يستمعون..

ولأول مرة..

قررت أن تُغني الشعر.. فالتفَّ حولها الجميع منبهرين بحُسنها وحُسن أدائها..

يا فتًى قلتُ إذ دعاني هــواه ... مُستجـيـيًا لصــوته لبَّيكــا

ما بكتْ مقلـتَيَّ لفقـدِكَ إلَّا ... جزعًا أن أموتَ شوقًا إليكا

أغمضت عينيها فقفزت صورته إلى مخيلتها..

سرت في بدنها قشعريرة من النشوة.. فابتسمت وأكملت القصيدة..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

على مدار الأشهر العديدة، ظل شهاب الدين يتقرَّب من السلطان، بطريقته الودود في الإخلاص للآخرين، وقد رأى السلطان فيه نموذجًا للشاب الطموح الذي تبوأ منزلة الابن لديه، لقد تحقق له الحُلم الذي طالما سعى إليه.. حتى إنه في إحدى المرات أثناء لقائه بالأشرف بركة خان في مجلس الحكماء، اقترب منه ومال عليه هامسًا في أذنه:

- تصوَّر أنكَ أهديتني هدية رائعة دون أن تدري، وهي المملوك شهاب الدين.. هذا الولد سريع التعلم، ذكي، وحريص على أن يُبلي بلاءً حسنًا في كل مرة أطلب منه أي شيء.. الآن من الممكن أن أقول إنني أستطيع الاعتماد عليه في إدارة شئون القصر السلطاني.

رد الأشرف بركة:

- ولكن يا مولاي أرجوك لا تتسرَّع، عليك أن تتمهَّل قبل اتخاذ هذه الخطوة.. ربما يمكنك أن توليه شئون الإشراف على الحرملك، بجوار الإسطبل؛ لتتأكد من ولائه لك، ومدى حفاظه على حريمك سيصبح المقياس العملي لولائه لك.. فقبل أن تسلمه شئون الحرب والبلاد، يجب أن تختبره مرة أخرى.

- ولكنني اختبرته من قبل في تحصيل أموال من ضامنة المغاني، وعلى الرغم من عدم معرفته بأصل الموضوع إلَّا أنه ذهب وتحدَّث باسمي

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وجاء بالأموال منها.. إنه رجل يُمكن الاعتماد عليه، ولذا قررت أن أمنحه شرف القيام بدور جديد في بلاطي.

ضحك الأشرف بركة خان ونظر إلى السلطان قائلًا:

- لقد كانت فكرة الاستعانة بهؤلاء الأولاد فكرة صائبة حقًّا يا مولاي، كان لا بد لنا من الاستعانة بشباب نزرع فيه الولاء منذ الصغر؛ ليكبر بيننا ويصبح منا، على أي حال من الممكن أن تبدأ في الاعتماد عليه بشكل أكبر، ولكن فلنتمهل حتى لا نندم..

كانت كلمات الأشرف بركة للسلطان بمثابة جرس إنذار، ولكنها لم تثنه عن نيته في مكافأة شهاب الدين ورفعه لمكان أكبر في القصر..

جلس السلطان في مجلسه بغرفة القصر الشرقية أمام مكتبه مُمسكًا بالريشة والمحبرة يكتب خطابًا لأحد الأمراء بالمملكة المجاورة..

دخل عليه الأغا «بهلوان» يترجَّل ويبتسم ابتسامته البلهاء كالعادة، فانحنى وقال بلهجة الخادم المطيع:

- مُرني يا مولاي.

أشار له السلطان بإصبعه، رغبة منه في تقصير الكلام:

- اذهب وأحضر لي شهاب الدين..

- أمرك يا مولاي.

قبل أن يستدير بهلوان ليغادر الغرفة، أمره السلطان بأن ينتظر، فعاد والتفت لينحني مرة أخرى وقال:

- أوامر مولاي.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

نظر إليه السلطان بشيء من الانبهار، فهو يعتبر بهلوان الأقرب والأقدر دائمًا على إضحاكه وإدخال البسمة على يومه مهما كان غاضبًا أو مستنكرًا تصرفات مَنْ حوله..

إنه يرقص ويغني ويلقي النكات، بل ويقوم أحيانًا بدور العفريت الظريف كنوع من الترفيه الفني للسلطان وحاشيته، كما أن قربه من السلطان وحريمه جعله العين للسلطان في القصر، حيث أتاحت له وظيفته وموقعه أن يسمع ويرى الكثير.. وهكذا كان السلطان يعتبره ناقل أخباره وكاتم أسراره.

نظر إليه السلطان، فأصر بهلوان على أن يشيح بوجهه بعيدًا حتى لا يلتقي بعينيه، فقام السلطان من مجلسه، واقترب من وجهه، فأداره حتى تلاقت أعينهما:

- أفصح لي يا بهلوان.. كيف ترى شهاب الدين؟

رد بهلوان مرتبكًا، وعلا وجهه احمرار:

- كيف أراه من أي زاوية يا مولاي؟

- من كل زاوية.. هل تراه أمينًا مثلًا؟ هل تراه رجلًا ذا عين زائغة يبغي النساء، هل تراه صادقًا؟ هل تراه مغفلًا؟

سكت بهلوان طويلًا قبل أن يجيب:

- أراه صبيًا مخلصًا لك ولوجوده عندك في القصر، أراه صادقًا لا يكذب ولا يختلق الحكايا.. الغريب حقًا أنني أراه شابًا لا يكترث كثيرًا بالنساء،

مادة محمية بموجب حقوق النشر

وهذا ما لا أفهمه حقًّا، فهو لا يسرق النظرات على الراقصات والمغنيات في مجالس السلاطين، ولم أره أبدًا يختلس الدخول إلى الحرملك، وهذا شيء غريب من شابٍّ في مثل سنه.. الشيء الوحيد الذي لا يريحني فيه هو أنه يتساءل كثيرًا ويستفسر عن كل شيء، كبيرًا كان أو صغيرًا.

- إذن تراه أمينًا؟

- إذا كنت يا مولاي تسأل لترفعه إلى مرتبة أكبر من سموك، فأنا أعتقد أنه مناسب تمامًا.

ضحك السلطان بصوتٍ جهوري، وخبط على ظهر بهلوان بعصاه حتى صرخ الأغا، وقال مداعبًا إياه:

- الغريب حقًّا أنك تتمتع بذكاء لا تبرره ملامحك وطريقة كلامك.. هيا انصرف من أمامي واذهب فاطلب منه أن يحضر حالًا ليمتثل بين يدي.

جرى بهلول خارج الغرفة وهو يضحك ويتحسَّس ظهره ثم يئن، وعاد بعد دقائق مصطحبًا شهاب الدين في يده، وقال موجهًا كلامه للسلطان:

- مولاي.. المملوك شهاب الدين كما أمرت سموك.

انحنى شهاب الدين فور دخوله على السلطان إجلالًا له، فأشار السلطان لبهلوان بأن ينصرف على الفور..

أصبح شهاب الدين واقفًا بمفرده في مواجهة السلطان، فأشار له بالجلوس، ولكن شهاب الدين رفض إلا بعد جلوس السلطان..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

قال السلطان مخاطبًا شهاب الدين:

- أنت تعلم جيدًا أنني اخترتك من بين المئات من الشباب في قلعة الجبل، بناءً على مراقبتك عن كثب لفترة طويلة، فقد كنت أرى فيك هذا الشاب الأمين القادر على تولي حمل الدفاع عن السلطنة.. ولقد دفعت بك في أكثر من امتحان لأعرف قدراتك وأختبر ذكاءك، ونجحت فيها جميعًا بتفوق.. واليوم أمنحك شرف ثقتي العظيمة بك، وأمنحك منصبًا جديدًا يليق بك بعد وجودك في الإسطبلات لأشهر طويلة، والذي صنع منك فارسًا قادرًا على التفاوض والدخول إلى عالم السلاطين، والآن أمنحك لقب «الجاشنكير» الخاص بي.

لمعت عينا شهاب الدين من السعادة، فقد شعر أخيرًا بأنه قد نال رضا السلطان، وهو في الحقيقة يُكنُّ له كل الحب والتقدير، فقد استطاع السلطان مع الوقت أن يمنح شهاب الدين الإحساس بالاطمئنان الذي لم يشعر به منذ أن غادر بيت أبيه..

رد شهاب الدين ممتنًا:

- أشكرك يا مولاي على ثقتك التي أعتز بها، وأعدك بأنك لن تندم على منحي هذا الشرف العظيم.. إنك بمثابة الأب الذي لا أحمل دمه في عروقي وأنا على استعداد بأن أفديك بعمري لو طلبت مني ذلك.

سادت لحظة صمت بينهما، عاد بعدها السلطان يسأل وعلى شفتيه نصف ابتسامة:

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- هل تعلم ما هي وظيفة «الجاشنكير»؟ من الغريب أنك لم تسألني!

- لقد تحرَّجت أن أسألك يا مولاي، ولكني أعلم أنها وظيفة مهمة بالقصر، لها علاقة بحاشيتك الخاصة، وقد كنت أنوي الاستفسار عن ذلك من بهلوان بعد أن تأذن لي سموك بالانصراف.

رد السلطان مربتًا كتف شهاب الدين:

- إنها وظيفة الذوَّاق الخاص بالسلطان، أي أنك المسئول عن الطعام الذي يتم تقديمه في الجناح الخاص بي، وتذوقه ليكون على أعلى مستوى من الجودة، وهذه الوظيفة يا شهاب الدين هي وظيفة تُمنح لشخص يتم الوثوق فيه؛ لأن أعداء كل سلطان يدبرون له المكائد، بل ويصل بهم الأمر أحيانًا إلى وضع السم في طعامه ليتخلصوا منه، وهنا يجب أن يتنبه الجاشنكير الخاص بالسلطان لمثل هذه المكائد.. وتصور أنه قد وصل الأمر بجاشنكير السلطان أيوب من فرط إخلاصه للسلطان أنه شك في علبة من الحلويات المقدمة إليه من أحد مساعديه بالمملكة، وكان طامعًا في الحكم، مما جعل الجاشنكير يشك في نواياه، وقرر أن يتذوق الطعام ليفتدي سلطانه وولي نعمته، وبكل أسف مات الجاشنكير، لكن بعد أن أثبت ولاءه التام للسلطان أيوب..مما جعل السلاطين من بعده يعطون هذه الوظيفة للأمناء من المماليك فقط.. هل تفهَّمت ما أقول؟ إنها ليست وظيفة تختص بالطعام وحده، ولكنها وظيفة الرجل الأقرب إلى السلطان، المهتم بشئونه.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

تلعثم شهاب الدين قليلًا قبل أن يرد، ولكنه تفهَّم تمامًا الرسالة التي يريد السلطان أن يوصلها إليه، إنه يحمِّله الأمانة والمسئولية معًا، وهو لن يتوانى في أن يفديه بروحه على أي حال، فهو يقدر له تشجيعه وثقته..

رد شهاب مبتهجًا وممتنًّا مرة أخرى:

- وأنا أعدك بأن أكون على قدر المسئولية يا مولاي.. أشكرك.

انصرف شهاب الدين والسلطان يلاحقه بنظراته وهو يتصوره قائدًا لجيشه ومملكته من بعده، كان على يقين من أنه قد أحسن الاختيار هذه المرة.

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

حُلم وكابوس

لقد تعوَّدا أن يلتقيا كل مرة في مكان جديد، حتى يتسنَّى لهما أن يريا القاهرة بعيون جديدة.. كانت قمر تؤكد في كل مرة تراه فيها أنها قد وقعت في غرام كل شيء في هذه المدينة حتى باتت ترسم تفاصيلها بذاكرة من عشق.. لقد تعوَّدت أن تعشق الأماكن حتى تستطيع أن تمتزج بها فتصبح جزءًا من الأماكن..

لم تنسَ أنها تركت أسرتها من أجل أن تأتي إلى هنا، ولكنَّ شيئًا ما منذ الوهلة الأولى جعلها تقع في عشقها وترتمي بين أحضانها..

هل هو تبر نيلها؟ أم عبير أزهارها؟ أم أبوابها وأسوارها الشامخة الضخمة؟ أم شوارعها وأزقتها المرسومة بالحجارة المنمنمة؟ أم مشربيات البيوت التي كانت تقبع وراءها تراقب وتحلم في هدوء كل يوم..

لا لم يكن شيء دون الآخر.. لقد وقعت في غرام المدينة لأنها تحترف السحر، فهي المكان الوحيد الذي يسعى إليك ولا تسعى إليه.. فهي الحضن والحُب والحُلم معًا.. فإنك عندما تجلس أمام بلُورتها السحرية، تأخذك إلى عالم مسكون، لغته الشعر، وحروفه المغنى، وحواديته تمتزج برائحة البخور وأحجار الكهرمان.. إنها القاهرة.. مدينة الألف مئذنة..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كانت تلتقى شهاب الدين في الأسواق والأزقة والحدائق وعلى ضفاف النيل.. كانا يتحدثان طول الوقت، ويضحكان بعض الوقت، وتلتقي عيونهما في عناق تفصله المسافات وتقربه الأمنيات في أغلب الوقت..

في أحد الأيام مرضت زوجة السلطان بمرضٍ جعل الألم والسعال يعتصر صدرها، فأمرها الحكيم بأن تنزل إلى بولاق لرؤية النيل؛ لأن هواه العليل قد يجعلها تتعافى..

أوكل السلطان إلى شهاب الدين هذه المهمة قائلًا له بكلمات محددة:

- اترك الإسطبلات اليوم للمهتار[1]، ولا تنسَ أن تؤكد عليه بأن يقوم بتسريج حصاني وإعداده لأنني سوف أذهب به إلى قلعة الجبل، ومره بأن يدخل إلى إسطبلات الجوق التي نضع بها خيول المماليك التابعين لي، ويقوم بتوجيه السوَّاس بمسح أبدانها وتنظيفها وتمريغها بعد المجهود التي قامت به تلك الخيول في مباريات الجوكان[2] التي قمنا بها بالأمس.. أما أنت فقد قررت أن أكلفك بمهمة خاصة ولا أجد مَنْ يقوم بها خيرًا منك، فأنت تعلم أن ثقتي فيك تزداد يومًا بعد يوم، ولذا قررت أن أوكل إليك مهمة اصطحاب زوجتنا الخوند المريضة إلى بولاق؛ لترى النيل كما أمرها الطبيب، ولا تنسَ الاحتياطات المهمة التي يجب أن تأخذها لتنفيذ هذه المهمة..

(1) المهتار: كبير الغلمان.

(2) الجوكان: لعبة أشبه بالبولو، وهي تُلعب بالكرة من على صهوات الجياد في ميدان مكشوف، أو في ميدان داخلي، ويلعبها فريقان يتكون كل منهما من أربعة لاعبين، ويحاول كل فريق دفع الكرة داخل مرمى الفريق المنافس.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كان خروج حريم السلطان من القصر بمثابة احتفالية عظيمة لها مظهر خاص، حيث يخرجن على محفَّات مغشاة بالحرير، يحيط بهن سائر الأمراء والمماليك والخدام، بعد أن يُطرد سائر الناس من الطرقات وتغلق الحوانيت إجلالًا واحترامًا لهن..

بالفعل أخذ شهاب الدين على عاتقه مهمة إصدار أوامر لأصحاب الحوانيت بإغلاقها، وسار بحصانه بجوار المحفات حتى وصلت بسلام لبولاق.. ووقف بعيدًا هو وأقرانه يراقبون المكان، من أجل حماية الموكب بأسره..

كان الجميع يرقبون السائرين والوافدين من كل مكان..

ووقف هو يرقب وصول حبيبته قمر.. لقد أيقن أنه وقع في حبها، وقرر أن يصرح لها بمكنون نفسه.. فطلب منها المجيء لتقابله في الحديقة المُطلة على شط النيل، مكانهما المفضل.

وصلت تتهادى. فابتسمت الطبيعة تحتفي بوصولها.. وكأن النسيم يحيط خصرها بيديه، وكأن النيل ينتظر قدومها لأنها عروسه، وكأن الأشجار كانت تهمس لبعضها بعضًا بقصائد غزل نسجتها في وصف جمالها الأخاذ..

- لقد أوحشتيني وأوحشني عبير ثوبك الأخاذ.. صدقيني يا قمر، إن ثوبك وشعرك لهما من العبير ما يجعلني على يقين من أنني أستطيع أن أستدل عليكِ وسط ألف امرأة حتى لو وضعوا عصابة فوق عيني.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

ضحكت ضحكة ارتعش قلبه لسماعها.. انحنى ليطبع على يدها قُبلة.. فاعترت وجهها لمحة خجل تحمل جمال الأنثى ورقة الفتاة، وسحبتها في دلال.

- قمر.. لا أعتقد أنني أستطيع أن أبتعد عنك لحظة واحدة من الآن فصاعدًا.. ولا أعتقد أنني أستطيع أن أتخيل أنكِ كل يوم تقضين الليل بطوله في بيت هذا النخاس الجشع الذي لا يحمل بين ضلوعه قلبًا، ويعيش على التربُّح من وراء بيع أجساد النساء، لقد خطرت ببالي فكرة أتمنى أن تروق لكِ.. قررت أن أجد طريقة لآتي بكِ إلى قصر السلطان، فتصبحين ضمن حاشيته، وبالتالي تصبحين موجودة تحت عيني طوال الوقت.. فإذا أصابكِ ضرر أدافع عنكِ وأفديكِ بروحي.. ما رأيك؟

ردت قمر بسعادة يشوبها رفض.. فهي سعيدة لأنها شعرت بمدى اهتمام شهاب الدين، ولكنها ترفض أن تصبح جارية في بلاط سلطانه الأعظم، قالت:

- أشكرك وأشعر بالامتنان لاقتراحك، وأنا لا أنكر أنني أشعر بكل الأمان وأنت على مقربة مني، لكني أكره سلاطين المماليك، فهم رجال مغرورون، ينظرون للأشخاص وكأنهم أشياء يمتلكونها، يبحثون عن شباب مثلك ليصبحوا حائط صدٍّ لهم ضد مَنْ يعاديهم، ويبحثون عن جوارٍ مثلي ليمنحنهم المتعة في ليلة، ثم يدفعوهن بعيدًا في الليلة التالية.. إن النساء بالنسبة لهم ملكية خاصة.. مثل الخيل والقصور والجواهر.. كل شيء يحولونه من ملكية عامة إلى ملكية خاصة.. حتى الأرض

مادة محمية بموجب حقوق النشر

يتعاملون معها على أنها جزء من ممتلكاتهم أرضًا وسماءً.. وسلطانك ليس سوى واحد منهم..

- لكن السلطان المنصور فخر الدين ليس إلَّا رجلًا أحبني من كل قلبه ووثق بي وقرر رفعي من مرتبة إلى أخرى تقديرًا لمجهودي، كما أنه دائمًا ما يقول لي إنه يعتبرني بمثابة ابنه الذي لم ينجبه، وأنا أثق في عدالته ونزاهته.. وألمس بنفسي الخدمات التي يقدمها للرعية.. صدقيني عندما تصبحين قريبة منه سوف تتأكدين من كلامي، وزوجته الخوند سيدة طيبة وتتمتع بحب جارف من كل جواريها، لقد رأيت كيف تُعامل الزمام دار[1] الخاصة بها، وهي التي كنت أنوي مخاطبتها لتأخذكِ هناك.. ثم تأكدي أن وجودكِ في القصر سوف يكون أفضل مائة مرة من وجودك مع هذا التاجر الجشع.

شعرت قمر بالغضب، أو ربما بالإحباط، بين كلمات شهاب الدين، فعادت تقول له:

- لا.. أرجوك لا تغضب مني.. وجودي بالقرب منك شيء أتمناه، وحمايتك سوف تمنحني كل الأمان.. ولكن الحرية هي ما أبحث عنه.. حريتي.. حرية وجودي وعقيدتي.. أتمنى أن أصبح صاحبة قراري.. أتمنى أن أستكمل دراسة الشعر لأني أعشقه، وكتابته أصبحت مخدرًا يسري في دمي، وحين ساعدتني قهرمانة بيت النخاس في كتابة الشعر وإلقائه، شعرت بأن حياتي قد تبدَّلت.. لقد عرفت أن الجواري اللاتي

---

(1) الزمام دار: السيدة المسئولة عن شئون نساء القصر.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

يتقنَّ الشعر يُصبحن جواري مختلفات لأنهن مثقفات، ويسمح لهن مع الوقت أن يُجارين الشعراء في الارتجال، ويقارعنهم مقارعة الند للند.. هذا هو الحلم الذي بات كل ما أسعى إليه، مجرد كوني جارية تحصل على شرعيتها من بين أحضان الرجال ليس هدفا لي، بل هو طريق أرفض المُضي فيه مهما كان الثمن.

صمت شهاب الدين، وأطال النظر إلى عينيها، إنه يرى تلك النظرة المُختلفة في عينيها منذ اللحظة الأولى..

لقد قرر أن يبوح لها بإعجابه، قرر أن يمنحها مشاعره التي فاضت من بين ضلوعه من شدة تعلقه بها..

- قمر.. استمعي إليَّ جيدًا.. سوف أبوح لكِ بكلماتٍ لا أحتاج إلى أن أقولها بلساني لأن قلبي يسطرها لكِ كل يوم.. أنا أحبكِ.. أعشقكِ.. أذوب شوقًا في عينيكِ اللتين تفيضان إصرارًا وحنانًا في آن واحد.. نحن لا نمتلك أقدارنا، ولكننا نمتلك واقعنا الذي نعيشه، فأنا لم أختر وجودي في بلاط السلطان، ولم أختر أن أرتقي مكانة الجاشنكير الخاص به.. ولم أختر أن ألتقي بكِ، ولم أختر حتى أن أحبكِ؛ لأنني وجدت نفسي مُنساقًا إليكِ، سوف أختار وجودي بجانبكِ حتى آخر العمر، ولو اضطررت لأن أحارب الكون وأتحدى البشر.

ارتسمت تلك الابتسامة على وجه قمر، وأصبحت دقات قلبها فجأة أعلى من أصوات أبواق موكب الحريم..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كانت تعلم أن اليوم الذي سيفاتحها فيه بحُبه سوف يأتي قريبًا، وكانت على يقين من أنها تُحبه.. واليوم تحقق حلمها، ولكن متى تصبح له ويصبح لها؟ متى يتحقق لهما حُلم الحرية؟

- لقد وقعت في غرامك يا فارسي الجميل منذ رأيتك أول مرة في السوق، وقتها رأيت فيك نُبلًا لم أره في رجال كثيرين.. لقد خفق قلبي من السعادة وأنت تشهر سيفك في وجوههم لتدافع عني.. وكم كنت أتمنى أن تشهر سيفك في وجه السلطان وتخطفني لنرحل من بلاطهم إلى بلاط حبنا، فتصبح سُلطاني، وأصبح جاريتك بلا شروط..

اقترب شهاب الدين منها.. ودون أن يشعر لثمها بقبلة فوق جبينها غابت فيها عن الدنيا ونسيت معها كل أحلامها، لتتحول أحلامها جميعًا إلى حُلمٍ واحدٍ هو حلم وجودها بين أحضانه، حتى وإن أصبحت أحضانه سجنًا يحبس حريتها للأبد.. فالحب حين يصبح منفًى، تطلب القلوب حق اللجوء إليه، وحق البقاء فيه، حتى وإن غابت عنه الشمس..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

أصبح كل ما يشغل بال شهاب الدين وقلبه في الأيام التالية للقائه مع قمر هو صورتها التي باتت تطارده في صحوه ونومه..

لقد عرف أجمل شعور من الممكن أن يتسلَّل إلى قلب شاب، شعور الانشغال بامرأة، شعور يختلف عن اليوم الذي قضاه بين أحضان الغانية التي أخذه إليها سيف الدين..

وعلى الرغم من أن قمر لم تكن متحمسة للانتقال إلى بلاط السلطان معه، إلا أن هذه الخطوة أصبحت شغله الشاغل..

لكن تُرى كيف يصل إلى السلطانة كي يقنعها بقمر.. لتصبح واحدة من جواريها، ولتصبح قريبة من قلبه الذي أصبح عبدًا لها؟

لقد قرر أن يستشير الشخص الوحيد الذي يعلم أنه قادر على الوصول إلى أذن السلطانة.. الأغا بهلوان..

فكر شهاب الدين في أن يطلب من بهلوان الذهاب معه إلى سوق المهامزيين[1] التي تقع بالقرب من إليماستان المنصوري، بعد استئذان

---

(1) سوق المهامزيين: هي سوق لبيع المهماز الذي يُستخدم في ركوب الخيل، والمهماز عبارة عن حديدة في مؤخَّر حذاء الفارس أو الرائض، كما كان الفرسان يبتاعون من هذه السوق العصي المصنوعة من الذهب والفضة، والتي يستعملونها في ركوب الخيل.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

السلطان طبعًا، لمساعدته في حمل المهامز التي سوف يختارها لركوب الخيل..

وكان شهاب الدين في منصب الأمير أخور مسئولًا عن شراء كل ما يلزم الإسطبل من معدات، بل وصيانتها أيضًا، وحتى بعد أن أوكل إليه السلطان عدة مهام أخرى بجوار كونه الأمير أخور، إلا أن إدارته للإسطبل كانت - ولا زالت - هي مهمته الأولى بالبلاط..

لم تكن مساعدة بهلوان في حمل أو اختيار المهاميز مطلوبة، ولكن الحديث معه واستشارته كان مأرب شهاب الدين الحقيقي من وراء دعوته..

بعد أن انتهى شهاب الدين من شراء ما كان يحتاجه، قرر أن يعرج به إلى أقرب مقهى داعيًا بهلوان إلى مشروب العناب المثلج الذي كان يعشقه..

جلس بهلوان على المقهى سعيدًا بصُحبة شهاب الدين، وقرر أن يُفصح عما في قلبه - بطيبته المعهودة - إلى صديقه الجديد:

- تصوَّر يا صديقي العزيز شهاب الدين، إنني لم أكن أتصور أننا سوف نصبح أصدقاءً أبدًا، ولا أعلم كيف أقنعت السلطان بنزولي معك اليوم، فهو لا يستغني عني أبدًا.. والحقيقة أنني قد سئمت العمل طوال النهار والليل، والإشراف على كل كبيرة وصغيرة بالحرملك، وكنت أحتاج إلى الخروج لأشم الهواء النقي.. فلا بد أن أشكرك على اصطحابي لهذه النزهة المُرهقة الممتعة في نفس الوقت.

مادة محمية بموجب حقوق النشر

قرر شهاب الدين أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة، ولكن بدون أن يكشف عن أوراقه كلها:

- خبِّرني يا بهلوان.. مَن المسئول عن الحرملك، أو بالأدق عن شراء الحريم فيه؟

رشف بهلوان بكل براءة رشفة طويلة من كوب العناب، ورد دون أن يفكر:

- القهرمانة «ريحانة»؛ فالسلطانة تضع كل ثقتها وكل شئون الحرملك في يدها، وهي سيدة في العقد الرابع من العمر، كانت جارية صغيرة في بلاط السلطان، وقد أُعجبت بها السلطانة فقررت الاستعانة بها في الحرملك، وجعلتها تترك العمل لدى السلطان لتصبح ساعدها الأيمن، فهي تقوم بانتقاء الجواري كل ستة أشهر تقريبًا، ثم تُشرف على تعليمهن، وأخيرًا توزيعهن على الأعمال المختلفة بالقصر.

صمت شهاب الدين قليلًا، كان مترددًا، هل يدخل في موضوع قمر، أم يصمت ويترك الموضوع برمَّته للظروف..

قرر شهاب الدين أن يستجمع شجاعته ويُخرج ما في جعبته:

- لقد رأيت جارية عند أحد النخاسين، إنها فتاة يبدو عليها الذكاء والحنكة وسرعة البديهة.

ابتسم بهلوان وقال بخبثٍ شديدٍ:

- وهل هي جميلة؟

مادة محمية بموجب حقوق النشر

رد شهاب الدين على الفور دون تفكير، قبل أن يتيقن من وقوعه في الفخ الذي نصبه له بهلوان بسذاجته وخبثه الواضحين:

- جدًّا.. إنها جميلة جدًّا!

غمز بهلوان له بعينيه غمزة لها دلالة وقال:

- وهل توصلت إلى كل هذه المعلومات من مجرد نظرة واحدة عند النخاس؟!

ارتبك شهاب الدين وتلعثم:

- لا.. لا.. أقصد نعم.. نعم.. لقد رأيته مرة يعرضها للبيع في السوق، ولاحظت فيها اختلافًا، جعلني أريد أن أهدي بها مولاتي حتى أنال رضاها.

غمز بهلوان بعينه لشهاب الدين، وابتسم نصف ابتسامة تقطر خبثًا وقال:

- لا تشغل بالك.. سوف أدبر أنا لك هذا الأمر، ولكن المهم أن تراها «ريحانة» وترضى عنها، فتصبح كل الخطوات التي تلي ذلك بسيطة.

انصرف شهاب الدين والأمل يملأ جنبات نفسه، ربما ستصبح قمر حبيبته إلى جانبه للأبد، فربما آن الأوان لأن يصبح عبيرها عبقًا يعيش معه كل دقيقة من أيامه.. بدلًا من أن يختلسه من لمسة يديها كلما التقاها..

* * *

مادة محمية بموجب حقوق النشر

- إنها جارية رائعة الجمال تكتب الشعر وتُلقيه.. لماذا لا نطلبها في ليلة عرس الأمير لتطربنا وتُشجينا؟!

- ولكن هل هي حقًّا متميزة؟

- إنها، يا مولاي، فاتنة بكل معنى الكلمة.. صوتها عذب، الكلمات التي تخرج من فمها تبدو وكأنها عزف، أما لو وصفت جمالها.. فهو خلَّاب لا محالة.

- إذن فلتذهب إلى النخاس الذي يمتلكها وتطلبها منه.

هذا هو الحوار الذي كان يدور كل يوم في أغلب القصور بين الرجال الذين رأوا قمر واستمعوا إليها..

لقد استطاعت في شهور قليلة أن تسرق الألباب وتسكن القلوب، انبهر بها الأمراء، وانبهرت بها الخوندات ونساء أمراء المماليك..

لقد ذاع صيتها، ووصل شعرها إلى كل مكان.

كانت تسطر الشعر في الليالي المُقمرة وتنسج من خيوطه أبياتًا ومن نوره سجعًا..

كانت تغزل أبياتًا من العشق كلما التقت به والتقت عيناها بعينيه في عناق العشاق ووصال المُحبين..

مادة محمية بموجب حقوق النشر

كانت تسطر الشعر له كُلَّما دقَّ قلبها، وكلما ارتوت مشاعرها بفيض الحب الجارف الذي تنهله من بحور عينيه..

اتفقا على أن تُخلد قصة حبهما حتى وإن لم يُكتب لها أن تحيا.. اتفقا على أن يحتفظا بها على أوراق يتركانها لأحفادهما إن قُدِّر لهما أن يرتبطا بالزواج..

كتبت له رسائل تحتوي على أبيات من شعرها الذي يحمل ملامح الأنثى العاشقة، ونثرًا انهمر من بين أصابعها كحبَّات المطر لتؤكد به على حبها له..

واعتاد هو أن يرد عليها بقلبِ عاشقٍ، وعقلٍ يتضرَّع في محراب حبها.. كانت تسلِّمه الرسالة مطوية عند لقائهما.. وكان يسلمها الرد في اللقاء الذي يليه..

كانت تحكي له وهي بين أحضانه على ضفاف النيل:

- لقد نقلت البرديات قصص الحب الفرعونية، وحكت حوائط المعابد أساطير المُحبين ومعارك الفرسان.. وأنا أتمنى أن تبقى ذكرانا عندما تفنى أجسادنا للأبد، أتمنى أن يقرأها أحفادنا ويروووها لأحفادهم.. فما أجمل أن تبقى هذه الذكرى في أشعاري لك وكلماتك لي.. ما أجمل أن تذهب الأجساد ويبقى الحب.

كان شهاب الدين يُعقب على أحلامها الكثيرة دائمًا بقوله:

- يا لكِ من حالمة! ويالكِ من عاشقة! ويا له من حُب يسكن جوانحي وأحلامي طوال الوقت! أشعر بالغيرة عليكِ من كل مَنْ يسمعونك

مادة محمية بموجب حقوق النشر